

روايات مصرية للجيب
لماذا جُنت الأبقار؟
سافارى
32
د. أحمد خالد توفيق

مقـــدمـة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سـافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصـص ، و(سـافارى) مصطلـح غربـى معنـاه (صيد الوحوش فـى أدغـال إفريقيـا) وهـو محـرف عـن لفظـــة (ســفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمـة إلـى (سـافاراى) .. لا أعـرف فـى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألـف الشيطانية التـى يكتبها الجميـع بعـد (واو) ليسـت (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولـو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظـة (سـافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التـى نتكلم عنها هنا لا تصطـاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصري عادى جدًا ، فقط وجد كثيراً من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حياً وتظل طبيباً .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

يصعب على المرء أن يقدم للمرة الأولى قصة للقراء لا يرسمها الفنان الأستاذ (إسماعيل دياب) ولا يشرف على تنسيقها الأستاذ (صبحي عبود) ـ عم (صبحي) كما ينادونه في المؤسسة ـ خاصة أنها المرة الأولى منذ وضعت قدمي هنا، لكن هذه سنة الحياة ولسوف تستمر أردنا أم لم نرد .. ليرحم الله الفقيدين العزيزين ويرحمنا يوم يقول الرسام الجديد : يحز في نفسي أن أرسم غلاف قصة لم يكتبها فلان أو فلان ....

١ـ مولانجا ..

فيما بعد عرفت أن الأمر تم على النحو التالى ..

إن (مولانجا) يسهر كثيرًا .. كل المراهقين يسهرون كثيرًا .. إنها تلك الطاقة الجامحة فى أجسادهم والتى يكتشفونها لأول مرة .. يصعب إسكاتها أو مهادنتها ، لكنهم فى النهاية ينامون .. ونومهم يشبه نوم الجلاميد ..

ثم ينهضون من النوم فيأكلون كالغيلان .. لا بد من تغذية هذا المرجل الذى تشتعل فيه نيران الشباب ..

وكان (مولانجا) مراهقًا وإن كان لم يعرف هذا بعد .. كل ما يعرفه أن صوته صار أغلظ وأن زغبًا خفيفًا نما على شفته العليا ، فقد كان نادر شعر الجسم ككل السود ..

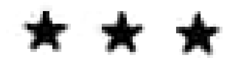
كانت حياته تمضى على وتيرة واحدة .. فى الصباح المدرسة وبعد الظهر يقف مع أمه فى ذلك المتجر الصغير لبيع الخضراوات فى (أنجاوانديرى) ، ثم يظفر بساعات من اللعب فى الليل . هذه الساعات كان يطيلها بالسهر ..

إلا أنّ الحياة لم تعد كما كانت .. إنه ذلك المرض الغريب الذى حل بأمه .. وهو لم يكن يؤمن بالأطباء ، لكنه كذلك كان لا يؤمن بالسحرة ..

إن المرأة التى لم تتعد منتصف العمر مصابة بخرف لا شك فيه .. إنها تنسى كل شىء بسهولة تامة .. لا تتذكر أى شىء بعد ربع ساعة .. إنها خرقاء .. تمشى مترنحة كأنها دن ثقيل .. إنها عصبية لا تكف عن الصراخ كالأطفال .. إنها قذرة جدًا .. لم تعد تستحم كعادتها ولا تستبدل ثيابها التى كانت زاهية فصارت بلون التراب .. كانت متدينة تصلى دائمًا أمام الأيقونة المعلقة فى الكوخ ، لكنها لم تعد تبالى بهذا على الإطلاق ..

كان هذا يثير قلقه وتوتره .. كان يعرف أن الأمور تسوء لكنه لا يعرف السبب بالضبط .. فقط كان يدرك أن حياته على عتبة الانتقال لمرحلة أخرى .. لن تظل الأمور كما هى .. ستُجَنُّ المرأة أو تموت .. وعندها سيكون عليه أن يواجه الحياة وحيدًا .. الحياة التى تتثاءب كوحش يستعد للانقضاض عليه ..

هكذا يمكننا أن نفهم الأسباب التى أبقته متيقظًا حتى الساعة .. طاقة الشباب المشتعلة مع القلق .. كل هذا كان كفيلاً بأن يبقيه جالسًا على الحشية التى ينام عليها حتى يتسرب ضوء النهار من الخارج .. عندها ستبدو المدرسة رابعة المستحيلات ..



لا بد أن هذا حدث فى الرابعة صباحًا .. نحن نعرف أن (مولانجا) سيموت .. إذن هذا هو الوقت تقريبًا ..

لقد قرر الصبى أنه بحاجة إلى بعض الهواء الطلق .. البعوض كثير نهم والحر خانق .. لهذا نهض فى حذر متجهًا إلى باب الكوخ .. إن الكوخ مشيد بحيث يلتصق بشجرة عملاقة ويقف على أوتاد خشبية فوق مستوى الأرض .. وعليه أن يتدلى منه على حبل .. هناك درج خشبى لكنه يناسب المرأة أكثر ، و(مولانجا) كما قلنا كان يغلى بالطاقة .. كان بحاجة لأن يبذل جهدًا جسديًا عنيفًا على سبيل تبديد الزائد من طاقته ..

هكذا تدحرج لأسفل .. ثم مشى لاهثًا وسط الأشجار المحيطة .. البلدة مظلمة .. الكل قد نام .. لا صوت هنا أو

هناك إلا صوت كلب ينبح .. رائحـة الليل الإفريقـى الخليط من عطر ألف زهرة وأنفاس ألف وحش وعبق ألـف عشب سحرى يُحرق فـى ألـف قريـة .. هذا الليـل يتسـرب إلـى منخريـه الواسـعين .. يشـهق بعمــق ليحبـس الهـواء فـى رئتيه .. ثم يمشى فى الظلام ..

إنه الآن يقف قرب المزرعة .. هذه من معالم عالمـه .. ويعتبرها الناس هنا محطة مهمة من محطات العربات ..

كـان الظـلام دامسًا بـالداخل لكنـه استطاع أن يتبيــن أن هناك مجموعة من الناس قرب السور الذى يشبه السياج .. ثمّة عدد من الرجال ـ حوالى أربعة أو خمسة ـ يلتفون حول بقعة بعينها من الأرض .. لم يتبين وجوههم لكنه قدر إنهـم على الأرجح من رجال المزرعة .. ولم يتبين ما يقومون به إلا عندما رأى رفشًا فى يد أحدهـم .. إنهم يهيلون التراب على حفرة ..

أم قبر ؟

كـان المشـهد غريبًـا بـالفعل .. مثيرًا للفضـول .. عندمـا يحفر الرجال الأرض فى هذه السـاعة المبكرة من الصباح فالأمر جدير بالتقصى ..

دنا منهم أكثر .. كانت الرؤية سيئة بحق .. لكن لا مشاكل هنالك .. لقد اتجه نحو تلك الشجرة العملاقة التى تطلُ على المشهد من فوق السور ، ثم راح يتسلقها مستعملاً جلد راحة يديه الخشن وجلد قدميه الأكثر خشونة ..

الآن هو يلقى على المشهد نظرة مما يسميها السينمائيون (بانورامية) .. هؤلاء هم الرجال .. لا يتبين الوجوه لكنه على الأرجح يعرف (جورج) .. لأنه بدين أصلع ولأنه يقضى حياته كلها بالفانلة الداخلية ..

يبدو أنهم يفرغون من عملهم .. هناك كشاف فى يد أحدهم لكنه يستعمله بتلك الطريقة التى تحجب الضوء أكثر مما تسمح بنفاذه ..

أما المقلق فى الأمر فهو الصمت .. الصمت المهيب الرهيب .. لا يعرف ما يقومون به لكنه محرم .. عمل لا يجب أن يُذاع .. وهكذا اتسعت عيناه الإفريقيتان الواسعتان أصلاً وكتم أنفاسه لأنه ـ وسط هذا الصمت ـ يبدو التنفس صاخبًا كالانفجار .. لكن صوت قلبه عال .. لا يمكنه أن يكتم هذا أيضًا .. ترفق يا قلبى أيها الأحمق ولا تفضحنى ..

مد يده عبر الغصن يبحث عن وضع أكثر راحة .. وكان هذا خطأ لأنه تلقى اللدغة فأجفل .. لا نعرف أى شىء لدغه ولا خطورة هذه اللدغة .. فقط جعله هذا يطلق صرخة قصيرة ثم تخلت يده عن الغصن ..

فى اللحظة التالية كان على الأرض وكل عظمة من عظامه تؤلمه وقد بدا أنها فى اتجاه يختلف عن مثيلاتها ..

وقبل أن يعرف ما يحدث كانوا يلتفون حوله ..

الكشاف مسلط لعينيه . ووجوه الرجال المتوحشة المتنمرة تحيط به .. نعم .. هذا هو (جورج) .. لا يعرف باقى اسمه لكنه يعمل فى المزرعة ..

كان الصبى على الأرض معدوم الحيلة .. طيرًا مهيض الجناح يحاول أن ينهض .. بينما استبدت بالقوم حالة من الذعر غير العقلانى ..

ـ « ماذا رأيت أيها الغراب ؟! »

قالها أحدهم وهو يركله بصندله فى قصبة رجله ..

همس الفتى الملقى على الأرض :

ـ « لم أر شيئًا .. »

قال آخر وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « إنه يكذب .. لماذا تسأله ؟ لقد رأى حتمًا .. »

ماذا رآه ؟ لا يعرف .. لكن من الواضح أنه بالغ الأهمية .. وجوههم تقول إنه بالغ الأهمية ..

قال آخر :

ـ « لن نتركه هنا .. دعنا نأخذه إلى الداخل .. »

قال آخر :

ـ « لا .. من الحكمة أن نبعده عن المزرعة .. »

وبنفس الأسلوب الهستيرى الخالى من التعقل انقضَّ ثلاثة منهم على الفتى يحملونه برغم أنينه واحتجاجه راكضين نحو الأحراش القريبة .. الحقُّ أنهم كانوا أشداء فعلاً .. كتلاً من عضلات التحمت ببعضها ..

كان يردد :

ـ « لكنى لم أر شيئًا .. »

لكنهم لا يصدقون .. لسان حالهم هو ما نقوله فى مصـر « قالوا للحرامى احلف .. » .. وبعيدًا وسط الأحراش ألقـوا به على الأرض ..

لا أعرف فى الحقيقة إن كانت نيتهم مبيتـة علـى قتلـه أم لا .. لكنه ارتكب خطأ جسيمًا عندما عض يد أحدهـم فجعلـه يصرخ ويسب .. كانت هذه هـى الشرارة التـى اندلعت فـى خزان المواد الملتهبة ..

ركلة أخرى فى ساقه ثم صرخ الذى عضه :

ـ « سأديرك أيها الصرصور ! »

ولم يصدق (مولانجا) المشهد حتـى وهو يـرى الفـأس يرتفـع فـى يد الرجل .. كـانوا فـى درجـة غير عاديـة مـن الانفلات العصبى والمعنوى ..

لكن ليس إلى هذا الحد بالله عليك !!!

إنـه ذلك الجنـون الجمـاعى اللحظـى الـذى يجعل النــاس يفعلون أى شىء ثم يندمون بعد ذلك عندما يجدون أنفسـهم أمام جثة .. ظاهرة إشعاع (سايكوفيزيائى) موذية ..

فى الجزء البسيط مـن الثانيـة الذى سبق هبوط الفـأس تساءل (مولانجا) عن مصير أمه من بعده . تسـاءل كذلك عن السبب الذى جعل ثمن ما رآه هو حياته ..

وكان آخر ما تمنـاه هو أن يعرف الناس السر وأن يدفـع قاتله ثمنًا غاليًا ..

ثم ....

★ ★ ★

٢ ـ هانس كروتسفلت ..

العلم النازى يرفرف على مدخل البناية ، ملقيًا ذلك الظل المقبض المخيف .. فلا ينقصه إلا عبارة تقول :« أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل. »

يجتاز الدكتور (كروتسفلت) المدخل محاولاً ألا تلتقى عيناه بعينى الحارس الواقف على الباب ، والذى ينظر له بشك .. إن أمعاءه تتقلص .. خاصة أن الأمر لا يتعلق به هذه المرة بل بزوجته .. إن الحب يجعلنا مكبلين مقيدين .. لو لم تكن زوجته فى الأمر لشعر بأنه أخف وأكثر تفاؤلاً ..

رجل يدنو من الخمسين هو .. كل شىء فى ملامحه يدل على العالم الذى يخفيه تحت معطفه .. والعلماء لا يحسنون التعامل مع السلطة .. إنها تمثل لهم (الغيلان التى تحرس جرار الذهب) .. الغيلان التى تملك العقاب لكن لا عقل لها ..

يجتاز الممر المهيب . كل شىء يذكرك بأننا فى العام ١٩٤٣ وأن هذه هى ذروة عصر النازية .. لكنه مواطن ألمانى حر .. بل محترم كذلك باعتباره رئيس قسم الأمراض

النفسية والعصبية بجامعة (كيل Kiel) .. ثم إنه عضو نشط فى الحزب .. صحيح أنه لم يكن يوميًا نازيًا صميمًا ممن يجأرون طلبًا للدماء ، لكنه لم يترك فرصة لم يعلن فيها وفاءه للفوهرر حتى على سبيل التقية ..

كانوا جالسين حول منضدة .. بالضبط كما تصورهم فى تلك الليلة المؤرقة التى مرت عليه .. المونوكلات .. النظرات الباردة ..

رئيس الجامعة هنا .. ورجل كل ملامحه تدل على أنه من الجستابو .. رجل آخر .. والراية الرهيبة ترفرف على بعد متر ..

ـ « اجلس يا هر دكتور » :

دخان السيجار يعمى عينيه ، لكنه لا يجرؤ على الاعتراض ..

يقول رئيس الجامعة :

ـ « أنت تعرف لماذا استدعيناك .. إن زوجتك قد حكم عليها بالسجن أربعة أعوام لأنها انتقدت الحرب علنًا ..

هناك أكثر من شاهد على أنها فعلت ذلك .. بل إنها انتقدت الفوهرر بكلمات لا أستطيع أن أكررها ..»

تدخل رجل الجستابو :

ـ « يعتبر هذا الحكم مخففًا للغاية نظرًا لوضعك الأكاديمى والحزبى المميزين .. »

قال (كروتسفلت) وهو يبلل شفتيه بلسانه :

ـ « ما زلت آمل فى أن بعض الالتماسات للفوهرر قد .. »

مط رجل الجستابو شفته السفلى وقال بلهجة من لا يريد الخوض فى تفاصيل دقيقة :

ـ « بااه ! لا أنصحك بهذا .. لا أنصحك على الإطلاق .. إن هذا يؤذى وضعها ويؤذى وضعك كذلك .. »

قال رئيس الجامعة :

ـ « سوف تواصل عملك .. ولكن دعنا نخبرك أن كل حركة وكل كلمة لك ستكونان تحت المجهر .. نحن فى زمن حرب .. لا يوجد المزيد من التساهل »

وساد صمت رهيب فأدرك الرجل أن المحادثة انتهت ..

نهض واتجه إلى الباب .. وأدرك أن الحياة من دون زوجته ستكون عصيبة لكن عليه أن يتحملها ..

★ ★ ★

لم تمر الحرب بخير على (هانس جيرهارد كروتسفلت Hans Gerhard Creutzfeldt) .. لقد حاول أن يعتزل العالم فى مختبره .. لسان حاله يقول : لا شأن لى بالحرب .. لكن الحرب تقول : لى كل الشأن بك ..

مرارًا حاول أن ينقذ بعض الأسرى من معسكرات الاعتقال .. وقد نجح فى هذا إلى حد ما ..

بين مطرقة النازيين وسندان الحلفاء أو العكس .. صحا ذات يوم ليجد أن الطائرات البريطانية هدمت بيته ومختبره فى آن واحد ..

لكنه كان فى عالم آخر .. بالضبط كان فى عالم آخر ..

كانت تلك الأعراض العصبية التى لاحظها فى عدد من المرضى تحيره ، وقد بدت له الحرب كلها أقرب إلى ضوضاء يحدثها صبى مشاغب تجعل التركيز عسيرًا .. فقط تمنى لو يصفع هذا الصبى ليخرس ريثما يتمكن من ترتيب أفكاره ..

كانت الصورة تتكامل ببطء فى ذهنه ..

لسبب ما كان ذلك المرض يؤدى إلى حالة من الخرف .. الهلاوس .. النسيان .. خلل فـى الكـلام .. تغـيُرات فـى المشى .. نوبات تشنج ..

وكان الفحص النسيجى لمخ من ماتوا بالمرض يريه دائمًا تلك الصورة العجيبة .. تلك المـادة شـبه النشوية التى يطلقون عليها Amyloid والتى أدت إلى تحلل المخ تحللاً كاملاً ..

يتمنى أن يجد بعض الوقت .. بعض التركيز ..

لكن قنبلة أخرى من قنـابل الحلفـاء تهوى فترتج البلدة بأكملها ..

لو ظل حيًا ـ بمعجزة ما ـ إلى ما بعد الحـرب فلسوف يكرس حياته لدراسة هذا المرض ..

* * *

من جديد يجتـاز مدخـلاً لا يختلف كثـيرًا عـن المدخـل السابق ..

هذه المرة الجنود يتكلمون الإنجليزية .. والعلم المعلق لا يحمل الصليب المعقوف .. لكنه الصليب المميز لبريطانيا والمدعو (يونيون جاك) ..

يدخل إلى قاعة تشبه الأولى .. هذه المرة لا يرى الأجسام البدينة والمونوكلات .. هناك شوارب شقراء كثة وشعور مقصوصة على الفودين بطريقة (قصة الطاقم crew cut) الشهيرة أو ما نسميه نحن (كابوريا) .. لا يوجد سيجار لكن هناك الكثير من الغلايين ..

العيون الزرق تحاصره فى اهتمام ..

قال أكبرهم وهو يشعل غليونه :

ـ « دكتور (كرِوتسفلت) .. نحن نقدر انشغالك لكن الموضوع مهم فعلا .. »

إنجليزية جيدة يفهمها هو لحسن الحظ ..

وقال آخر وهو يراجع بعض الأوراق :

ـ « كنت عضوًا مهمًا فى الحزب النازى .. يقال إنك لم تكن متحمسًا .. لكن هذا لا يعفيك من المسئولية .. والآن أنت رئيس الجامعة منذ ستة أشهر ومنصبك حساس .. »

قال (كروتسفلت) :

ـ « سيدى .. لقد انتصرتم معشر البريطانيين ومــات (هتلر) .. هل تريدون ما هو أكثر ؟ »

ـ « نريد معرفة اتجاه ولائك .. باختصار مقدار ما تداريه من نازية .. »

قال العالم فى شىء من سخرية :

ـ « ما دمتم بهذه البراعة ألم تسمعوا أن زوجتى سجنت بسبب انتقادها (هتلر) ؟ »

ـ « هذا عن زوجتك .. أما عنك أنت .. »

وفتح الأوراق أمامه وقال :

ـ « هناك أشخاص عرضهم النازيون عليك للحكم على حالتهم العقلية .. هيا .. دعنا نر .. هناك أكثر من واحد .. »

ورفع الورقة ليظهر التقرير المكتوب عليها بالألمانية وأردف :

ـ « قلت فى تقريرك الطبى إنــه لا غبار على قواهم العقلية .. وهكذا سيقوا إلى الإعدام .. كان بوسعك أن تحميهم .. »

قال (كروتسفلت) فى عصبية وهو يدس يديه فى خصره :

ـ « طلبوا رأيى العلمى .. رأيى الاستشارى .. هل هذا مجنون أم لا ؟ قلت رأيى بصرف النظر عن مصير الشخص لأن هذا ليس عملى .. ولو تكرر الموقف ذاته لفعلت نفس الشىء .. إن هى إلا شهادة أديتها بما يتفق مع خبراتى وشرفى .. »

ـ « حتى لو أدت هذه الشهادة إلى موت إنسان ؟ »

ـ « قلت لك يا سيدى إننى قمت بما طلب منى .. ولم أسأل لحظة عن مصير هؤلاء .. أنا ترس فى آلة عملاقة وقد درت كما يجب .. »

نظر له البريطانى للحظات ثم دس الأوراق فى مظروف كبير وقال :

ـ « يمكنك الانصراف يا بروفسور .. »

اتجه (كروتسفلت) إلى الباب فسمع البريطانى يقول ما توقعه :

ـ « بالمناسبة .. أنت لم تعد رئيسًا للجامعة .. »

رفع (كروتسفلت) حاجبيه وقال :

- « وهذا يعنى ؟ »

- « يعنى أننا استبعدناك .. أنت معفى من منصبك كرئيس الجامعة .. »

★ ★ ★

وفى الشارع وسط البنايات التى لم تنسف بعد من جراء القصف مشى (كروتسفلت) وهو يبتسم لنفسه فى مزيج من مرارة وسخرية ..

إنه اللامنتمى دائمًا .. المتهم الأبدى .. بالنسبة للنازيين كان مشكوكًا فى ولائه وبالنسبة للبريطانيين هو نازى سابق .. إنه صدامه المعهود مع السلطات .. يومًا ما ستزول الحياة من على وجه الأرض لكن الصراصير لن تنقرض .. الصراصير والموظفون الحكوميون .. إنهم يتحملون كل شىء ..

سوف ينسى الحرب .. سوف يترك القنابل والدماء والرصاص لمن هم أهل ذلك .. إن العالم ينقسم إلى نوعين من البشر : الذين يطلقون الرصاص والذين يموتون به .. سيحاول هو أن يكون نوعًا ثالثًا ..

سوف يرحل إلى (ميونيخ) .. وهناك يبدأ العمل محاولاً الوصول إلى لغز ذلك المرض العجيب ..

ولم يكن يعرف أن المرض سيحمل اسـمه لـلا بد .. مـع اسم عالم آخر سيشاركه ذلك الاكتشاف المذهل ..

إننا الآن على أعتاب مرض (ياكوب ـ كروتسفلت) ..

★ ★ ★

٣- دوجمار..

المشكلة الأبدية هي أنك قد تحكي قصة شائقة ، ثم تجد أنك مضطر إلى التطرق لمواضيع مملة أو - على أقل تقدير - لا تهم أحدًا سواك .. خذ قصتي هذه على سبيل المثال .. كيف أحكيها من دون أن أذكر نبذة عن حياتي في تلك الآونة ؟

حسن .. الأمر هو البساطة ذاتها .. كانت فترة خالية من الأحداث منذ كانت تلك القصة المحزنة للأستاذ الألماني الذي أصيب بداء (ألزايمر) .. (برنادت) لطيفة .. (شيلبي) هادئ .. (ليفي) بعيد في عالمه الخاص الكريه .. أعتقد أن جرعة الشفافية التي نالها منّي بعد تلك التجربة جعلته يفضل تركي وشأني .. « أنا لا أكره الناس ولا أسطو على أحد .. ولكنني إذا ما جعت آكل لحم مغتصبي .. إذن فحذار من جوعي ومن غضبي » .. هذه كلمات (محمود درويش) التي تلخص موقفي بدقة .. (فيما بعد كانت لنا مواجهة عنيفة بحق .. لكن ليس المجال مجالها .. ذكروني بأن أحكيها في المرات القادمة) ..

المزيد من الجراحات .. مستواى يتقدم بلا شك .. حتى الإيطالى الأسطورى المخيف (سباتزانى) أعلن ـ ذات مرة وهو غير منتبه ـ أنه يستريح للعمل معى .. فلا بد أنه لسف على قول هذا كثيرًا ..

المزيد من الدراسة .. (هيلجا) صارت مسالمة هذه الأيام ، ويبدو أنها موشكة على الموت أو ما هو أفضل ..

المشكلة الوحيدة بالنسبة لى .. أ .. مشكلتان فى الواقع .. المشكلة الأولى هى رغبة (برنادت) فى الذهاب إلى كندا لزيارة أبيها ، وهى الزيارة التى كنت أتوجس خيفة منها منذ زمن .. هى جاءت معى إلى مصر ومن المفترض أن أذهب معها إلى كندا .. ولا أخفى سرًا أننى كنت لا أسيغ أباها بحال .. هو رجل ثقيل الظل كما بدا لى منذ اللحظة الأولى .. معجزته الوحيدة هى أنه قدم للعالم هذه الزهرة النضرة .. شكرًا جزيلاً له .. هذا كل شىء .. بعد هذا يجب أن يتنحى .. يجب ألا يزعج الآخرين .. تصوّر لو أن (دافنتشى) يقف جوار لوحة الموناليزا حتى اليوم يشرح لكل من يقف أمامها كم هو عبقرى ورائع ..

كنت لا أطيق أبا (برنادت) وأفعل ما بوسعى كى أخفـى عنهـا هذا .. لكنـى أدركت أن الصدام آت لا محالـة .. أنـا وهو عنصران لا بد أن يتفاعلا وخير ما تفعله هو أن تبقـى كلاً منهما بعيدًا عن الآخر .. أضعف الإيمان أن تحافظ على علاقة سطحية بينهما .. مجاملات لا أكثر ..

المشكلة الثانية هى أنهـم يريدون أن يرسلونى إلـى بلد إفريقـى آخـر .. ليس للأبـد بـل علـى غرار مـا حدث فـى رحلتى السابقة لـ (كينيا) .. بضعة أشهر أو ربما هو عـام كامل .. لا أعرف أين .. لكنــى أشـعر بـأن هـذا المكـان هو وطنى الثانى ، ولم أعد راغبًا فى تجربـة علاقـات بشـرية أخرى فى مكان آخر له مشاكل أخرى ..

لهذا لم تكن عندى مشاكل بصدد اللحظة ، لكن الغـد كـان يحمل لى مخاوف لا بأس بها .. وهو شأن الإنسان فـى كل لحظة على كل حال ..

* * *

صباح اليوم كنت فى جولة على عنابر الأمراض العصبية مـع د. (جــابرييل) .. استشــارى الأعصــاب الكـاميرونى البارع ..

لا أنكر أن هذا الفرع من الطب يثير انبهارى دومًا .. تعرفون أننى بطبعى أفضل ما هو محدد ودقيق .. يثير هلعى كل هذا القدر من الضبابية والعموم فى الأمراض الباطنة عامة .. لو رأيت مائة مريض بالتيفود لرأيت مائة عرض .. منهم من يشكو ارتفاع الحرارة ومنهم من تضخم طحاله ومنهم من يصدر صدره صفيرًا .. وعلى الطبيب أن يتميز بقدر غير مسبوق من التقدير والحكمة كى يصدر قراره ، أما الأمراض العصبية فتبدو أكثر إحكامًا ودقة .. كأننا نتكلم عن مجموعة من الأسلاك . لو قطعت السلك (أ) لانقطع التيار الكهربى عن كذا وكذا .. لو قطعت السلك (ب) لانقطع التيار عن كيت وكيت .. لهذا يتمكن طبيب الأمراض العصبية من تحديد موضع الخلل بدقة شبه تامة بمجرد الفحص الإكلينيكى ، وقبل أن يتثاءب طبيب الأمراض الباطنية ويقرر التفكير بزمن ..

على أن الأمراض العصبية متنوعة هنا بشكل غير مسبوق .. خذ عندك قائمة الأمراض التى يشكو منها العالم الغربى ، وأضف لها ما لا يخطر ببال .. الملاريا المخية مثلاً .. مرض النوم .. زهرى الجهاز العصبى .. مع مجموعة الأمراض الجميلة التى أهداها الإيدز للعالم ..

كان العنبر مزدحمًا وكان (جابرييل) عمليًا جدًا .. يتخذ قراره بسرعة ويصدر تعليماته لى ولطبيبين آخرين بلهجة من لا ينوى أن يكرر كلماته .. لاحظ أن عمله لم يكن طبيًا فقط بل تضمن الترجمة لنا كذلك .. وكان إلمامه باللغات المحلية يعطيه نقطة سبق لا شك فيها مما جعل اللعبة غير عادلة ..

كانت تلك المرأة الكاميرونية تجلس فى فراشها شاخصة البصر إلى الأمام .. لا أستطيع أن أقدر عمرها لكنها ليست مسنة على كل حال .. شعرها منتثر ثائر وثياب المستشفى التى ترتديها قذرة متسخة .. فى عينيها تلك النظرة التى تراها مرارًا .. نظرة جهاز الكمبيوتر ـ لو كان شىء كهذا ممكنًا ـ الذى فقد قرصه الصلب .. إنها واعية لكن لا تنفع لوعيها هذا ولا تعرف ما يجب أن تصنعه به ..

وقف (جابرييل) يتفحص أوراقها ثم قال بصوته الغليظ المميز :

ـ « اسمها (دوجمارا) .. من (أنجاوانديرى) .. يقول الجيران إن هذا التدهور بدأ منذ عامين .. سنها لا تفسر شيئًا كهذا .. »

قلت وقد تذكرت قصة سابقة :

ـ « ماذا عن داء (ألزايمر Alzheimer) ؟ »

نظر لى باسمًا وقال :

ـ « ليس هذا أول ما نشك فيه ما دمنا بعيدين عن العالم الغربى .. ليس مرض (ألزايمر) ضمن قائمة مصائب القارة السوداء . دعك من أننا نشخصه بالاستبعاد .. »

ثم حك رأسه فى حيرة وقال :

ـ « يبدو الأمر أقرب إلى خلل فى التمثيل الغذائى .. لكن كل نتائج المختبر بصددها سليمة .. »

سألته وأنا أعرف الإجابة :

ـ « ونتائج الأشعة ؟ »

ـ « كلها سلبية .. يبدو مخها سليمًا تمامًا .. »

ـ « هل الصدمة النفسية واردة ؟ »

ـ « لا يوجد ما يؤيد هذا .. دعك من الهستيريا كذلك .. لقد راقبناها وهى منفردة فوجدناها تتصرف بالشكل ذاته .. »

ثم ابتسم وقال وهو ينظر لى :

ـ « لو كنت تبحث عن لغز فأنت تقف أمام واحد .. »

ثم أردف وهو يتفحّص الأوراق :

ـ « كانت تعيش وحدها مع ابنها .. لختفى هذا الأخير منذ فترة ، وبالتالى لم يعد هناك من يعنى بها .. وقد جاء بها الجيران إلى هنا .. تقول الممرضات إن تنظيفها كان عملاً ملحميًا .. إن القذارة الشخصية جزء لا يتجزأ من الخرف الذى نتكلم عنه .. دعك من أنها لا تأكل لو لم يطعمها أحد .. باختصار هى تحولت إلى طفل رضيع .. »

كانت هذه الصورة تؤلمنى بشكل خاص .. هذا نموذج على أن الروح قد تشيخ وقد تمرض .. حتى فى أكثر الأمراض تقدمًا أتوقع أن يكون المريض واعيًا مدركًا لما يحدث له .. محتفظًا بروحه وقدراته العقلية .. ثمة أرض يقف فوقها ليتألم .. ليأمل .. لا بد من أرض ما .. أما هنا فهو ضائع معدوم الوزن محلق فى عوالم لا يعرف كنهها أحد .. هل فقدان الصحة أكثر بشاعة من فقدان الذات ؟

نظر (جابرييل) إلى الممرضة وقال :

ـ « اعملوا على أن يتم تنظيفها وأن تستبدل ثيابها .. فإن لم نستطع تخفيف عذابها فلنحفظ عليها كرامتها على الأقل .. ».

واصلنا المرور .. لكن صورة تلك المرأة الوحيدة فى العالم .. التي لم يعد لها من سند إلا شفقة الآخرين .. هذه الصورة ظلت تؤرقنى ..

وقد دنوت من (جابرييل) وسألته همسًا :

ـ « تلك المرأة .. »

ـ « أية امرأة ؟ »

ـ « التى فقدت ابنها وعقلها .. »

كان قد نسى القصة وعاد لتجرُده العلمى ، فسألنى وقد تذكر :

ـ « ماذا ؟ »

ـ « كيف تتوقع أن يستمر الأمر ؟ »

قال فى لهجة تقريرية :

ـ « لا أتوقع أن يستمر .. من رحمة الله أنه لن يستمر .. سوف تدخل فى غيبوبة وتموت .. هذا هو السيناريو المتوقع ما لم يظهر عبقرى ليعلن : إنها مصابة بكذا وعلاجها كذا .. »

هو ليس قاسيًا .. فقط هو لا يملك الوقت ولا الترف العقلى ليكون حنونًا ..

وكنت أنا أعرف نفسى .. ستظل هذه المرأة معى لفترة لا بأس بها .. ثمة مريض أراه فأعرف على الفور أنه صار (مريضى) .. إنه شىء يشبه الحب من أول نظرة .. سمّه التعاطف من أول نظرة ..

سوف أساعدها .. فإن لم يكن .. ..

★ ★ ★

« .. فإن لم نستطع تخفيف عذابها فلنحفظ عليها كرامتها على الأقل .. »

★ ★ ★

٤- بوريس ألكسندريف ..

تسألنى عن اسمه ؟

إنه (بوريس ألكسندرييف) .. الطبيب البيطرى الشاب القادم من (موسكو) .. إنه فى الثلاثين من عمره ، وله وجه مربع صلب وعينان خضراوان حزينتان .. لقد جاء إلى (أنجاوانديرى) منذ عام ومعه زوجته (تاتيانا) وابنته (كاتيا) .. زوجته روسية جدًا ولا تجيد كلمة واحدة من الإنجليزية أو الفرنسية ، لذا تكتفى بأن تهز رأسها .. وقد اكتسبت مع الوقت براعة شديدة فى هذا الفن .. يمكن لهزة من رأسها أن تقول (نعم) وهزة تقول (لا) وهزة تقول : (لا أشعر براحة هنا ، لكن الوضع أفضل من موسكو على كل حال .. لقد تبخرت مدخراتنا فى الفترة السابقة) ..

لم تنعقد صداقة بينى والرجل .. فقط كنت أعرف أنه موجود .. مجال عمله بعيد تمامًا عن مجال عملنا .. إن نقاط تلاقى الطب البشرى والبيطرى هى ما يعرف باسم Zoonoses وهى نقاط لا حصر لها ، لكن لم تكن هناك

سياسة للتنسيق كما تعلم .. ولم يكن وباء (حمى الوادى المتصدّع) قد ظهر هنا وقتها لهذا كان كل منا يعالج مرضاه بطريقته ..

كانت بداية تعارفنا فى دار (مولينسار) جيراننا الودودين .. لا أعرف إن كنت تذكر قصة الدكتورة (سيمون) التى أصابت زوجها بداء الإيدز .. إنهما حيان على الأقل ونحن نزورهما بانتظام .. صحيح أنهما يريان الموت مرارًا لكنهما يحاولان التماسك ..

قلت لك إنهما يدعوان الناس بإفراط فهما ودودان بعنف .. بشراسة .. وهناك قابلت هذا الطبيب الروسى الخجول نوعًا .. طبعًا كان يجيد الفرنسية إلا أننا لم نستطع التفاهم مع زوجته .. ولكن (برنادت) استطاعت أن تعقد صداقة معها .. إن للنساء أساليبهن على كل حال ..

وإذ وقفت معه بعد العشاء فى الشرفة المطلة على الحديقة الصغيرة ، راح يحكى لى عن (موسكو) وكيف صارت الحياة هناك عسيرة .. لقد تحوّل الاتحاد السوفييتى السابق إلى أكبر آلة طرد مركزى عرفها التاريخ .. لو أردت أن تجد طبيبًا فى أى بلد فى العالم لوجدت .. لو أردت عالم ذرة

لوجدت .. قلت له إن راقصات مصر الشـرقيات يعانين مـن هذا الزحف الروسى على الفنـادق الكبرى .. لقد تحـوّل الروس إلى صيادى فرص فى كل مكان ..

قال لى شارد الذهن :

ـ « لا ألـوم (جوربتشيف Gorbachev) على محاولته أن يمنحنا الحرية .. فقط هو فعل هذا أسـرع مـن الـلازم .. لم يخطط للأمر وهكذا تحول الاتحاد السوفييتى المهيب إلـى رمال تذروها الريح .. »

لم أعلّق لأنه أدرى بشعبه .. بدا لى أى تعليق سخيفًا ..

كنت أفكر فى موضوع آخر خطر لى عندما وقفت جواره ..

★ ★ ★

كان (آرثر شيلبى) يقوم بالمرور معى صباح البارحـة .. الأمريكى المتبختر الثرثار الذى يرغمك على أن تحبه برغـم كل شىء ..

كانت هناك نقطة جدلية نشبت بيننا حول داء (البروسيللا) أو (الحمى المالطية) .. ذلك الداء الذى ينتقل إلى الإنسان

مـن الأبقـار والمـاعز والخنــازير . مـن لحومهـا وألبانهـا والتعامل المباشر معهـا .. الداء الذى اكتشفه (ديفيد بروس Bruce) فـى (مالطـة) وهـو فــى طريقـه إلــى الناتــال ليكتشف سر مرض النوم .. أى أنه اكتشفه (بالمرة) كمـا نقـول فـى العاميـة .. ومـن اسـمه جـاء اسـم المــرض (بروسللا) ..

كنت أعرف أنه ـ (شيلبى) لا (بروس) ـ محق ويكفى أن يخبرنى بالصـواب ، فهو بارع حقًا .. لكنه أصر على أن أعرف الموضوع بنفسى ..

قال لى وهو يمضغ سيجاره الشهير :

ـ « اعتبر هذا تكليفًا ببحث علمى .. أريد أن تتصل بأحد الأطبـاء البيطريين وتعرف منـه الوســائل الكاملـة لوقايــة العاملين فى المزارع من داء البروسيللا .. أتوقـع منك أن تعطينى هذا التقرير خلال ثلاثة أيام .. لاحظ أننى أريـد مـا يتم فعلاً .. فلا تقض ليلتك تجمع المعلومات من شبكة الإنـترنت ثم تطبعها وتسلمنى إياها غدًا .. » .

ثلاثة أيام ؟ من دون إنترنت ؟ لا بد أنه يمزح ..

لكن ما أكثر طلبات (شيلبى) العلمية .. إنه يطلب مائة طلب فى اليوم لا أتذكر منها إلا خمسين .. وأجتهد فى عشرين .. وأنفذ خمسة .. ثم أنسى أن أعطيه إلا اثنين مما توصلت إليه .. وينسى هو أن يقرأ ما كتبت .. هذه هى طريقة الحياة معه ..

إلا أنه لم ينس هذه المرة ، وقد سألنى صباح اليوم عما حققته فى بحثى ، فرسمت أعتى علامات الحماس العلمى على وجهى وقلت ما معناه : لن تصدق .. افضل أن تقرأ هذا الكلام المذهل بنفسك ..

طبعًا لم أكن قد خططت حرفًا فى هذا البحث ولم أكن أملك أية فكرة عن كيفية البدء .. يبدو لى والله أعلم أننى فى مأزق ..

الآن جاءت الفرصة متمهلة تتكلم الروسية وتثرثر عن (جورباتشيف) .. فهل أتركها ؟

سألت (ألكسندرييف) فى أدب عما إذا كان يستطيع مساعدتى ..

قال باسمًا :

ـ « يمكن أن أمليك بعض النقاط الآن .. فهل هذا كاف ؟ »

قلت فى حرج :

ـ « الرجل يطلـب شيئًا مختلفًـا .. يطلـب أن أرى بعينـى وربما ألتقط بعض الصور .. »

فكَّر قليلاً .. ثم قال وهو يقتادنى إلى الداخل :

ـ « لا توجد مشكلة .. هناك مزرعة تدعى (سـيرينيتيه) فى (أنجاواندبرى) .. مزرعـة مـواش عملاقـة أشـهر مـن نار على علم .. أعتقد أنك واجد غرضك فيها .. »

ـ « وكيف ؟ أعنى أننى لن أدخلها قائلاً إننى أرغـب فـى إجراء بحث .. »

قال :

ـ « سوف تقـابلنى هنـاك عند البوابـة الرئيسـية فـى العاشرة صباح غد .. »

ـ « فلنجعلها عصرًا .. لست فى حل مـن تـرك عملـى صباحًا .. »

وهكذا تم الاتفاق ..

★ ★ ★

كانت الساعة الثالثة عصرًا عندما وقفت على بوابة المزرعة الرئيسية .. كنت ألبس قميصًا صيفيًا لكن حرارة الجو كانت كابوسية .. الكاميرا معلقة إلى صدرى وقد رسمت على وجهى مخايل السائح المستهتر .. إنها الكاميرا الرقمية الجديدة التى ابتعتها عبر شبكة الإنترنت .. وقد برهنت حتى هذه اللحظة على أنها أداة رائعة ..

كانت البوابة عملاقة لكن هناك كشك حراسة صغيرًا إلى جانبها يجلس فيه رجلا أمن يبدو عليهما الإرهاق من الحر .. ومن حين لآخر كانت شاحنة كبيرة تجتاز المدخل فيتم فحص أوراقها .. إن الأهالى هنا يطلقون عليها (المزرعة) لكنهم لا يتكلمون عنها أكثر من هذا .. إنها مثل (ماونت كاميرون) .. وجدت هنا من قبل أن نوجد ولسوف تبقى من بعد ما نمضى .. إنها من معالم الكون التى نراها بأطراف عيوننا ولا نتوقف عندها .. وإن كنت قد قدرت أنها كيان عملاق فعلاً ..

أخيرًا رأيت سيارة (لاندروفر) ذات مظهر مميز .. واقتربت فرأيت أن سائقها هو (بوريس ألكسندرييف) وكان يضع نظارة سوداء وقد بدا عليه المرح .. كان منتعشًا كالمصيبة بلا أدنى مبالغة ..

قال لى إذ رآنى :

ـ « هل تأخرت ؟ »

ـ « ليس لدرجة شيى حيًا .. »

فتح الباب لأجلس جواره فى الهواء المكيف الجميل ، ثم اجتاز المدخل بثقة فحيّاه الحراس بلفظة (دكتور) مما أكد لى انه معروف هنا جيدًا وربما محبوب كذلك ..

أية مزرعة هذه ؟

لشد ما تبدو المظاهر خادعة من الخارج ! إنها مزرعة مترامية الأطراف تحتل مساحة شاسعة .. أنا الذى كنت أعتبرها مجرد سور وبوابة ..

فى الداخل يبدو الأمر منظمًا .. هناك حظائر واسعة .. هناك مراع .. هناك قطعان من الماشية .. هناك قوة عاملة لا بأس بها ..

راح يشرح لى مدى ضخامة هذا المشروع ونحن نجتاز طرقات ملتوية ذكرتنى بمعسكرات الجيش .. إن هذه المزرعة ملك لوحش من وحوش المال هنا اسمه (فرود ندى) .. هكذا قال لى .. إنه (تايكون) حقيقى .. ويمثل ما ينتجه

من لحوم نسبة لا بأس بها من إنتاج البلاد الكلى .. وهو رجل ذو نفوذ سياسي كذلك .. طبعًا .. عندما يحصل الإنسان على الثروة يتلفت حوله فى جشع بحثًا عن النفوذ .. هذه هى القصة دومًا .. الخلاصة أن الإنسان لا يكفُّ عن البحث عن فرص ينتزعها من الآخرين ، وهو لا يكف عن الكلام عن الزهد والكفن الذى ليست له جيوب ، إلى أن يواريه التراب فيريح ويستريح ..

كانت شاحنات متوسطة الحجم تنقل السماد للمراعى .. وهو سماد عالى النتروجين والبوتاسيوم ـ كما أخبرنى الطبيب ـ للحصول على أفضل نبت فى المنطقة ..

سألت (ألكسندرييف) وأنا أضبط عدسة الكاميرا :

ـ « هل تعمل هنا بشكل ثابت ؟ »

قال باسمًا :

ـ « لا .. إن عملى استشارى .. جولات من وقت لآخر وقد يطلبوننى لغرض ما .. إن لهذه المزرعة فريقها الطبى الخاص .. لكن الجميع يعرفنى .. »

راح يجول بى فى المكان ويشرح لى تفاصيل العمل .. وكنت ألتقط بعض الصور .. الحقيقة أننى فتحت الخزان وصرت عاجزًا عن غلقه فلست مهتمًا على الإطلاق بكل هذه التفاصيل .. سؤالى كان عن طرق الوقاية من البروسيللا هنا .. لكنه راح يصبُ على رأسى سيلاً من التفاصيل ..

كنت ألتقط صورًا لبعض الأبقار فاخرة المنظر عندما ظهر ذلك الإفريقى .. إنه من نمط (أصلع ـ بدين ـ فانلة داخلية ـ صندل) .. وهو نمط منتشر هنا بشدة .. راح يتبادل اللكمات مع (ألكسندربيف) على الطريقة الغربية المعروفة للمزاح السمج ، ثم انفجرا فى سيل من الشتائم الفرنسية والروسية .. واضح أنهما صديقان قديمان ..

بيد قوية غليظة صافحنى الرجل فأخبرنى (ألكسندربيف) أنه يدعى (جورج أكيندى آكو) .. وهو اسم شائع هنا .. وأنه أهم رجل فى المزرعة تقريبًا .. طبعًا هذه مجاملة لم آخذها حرفيًا ..

قال (جورج) وهو يجرُ الرجل جرًا :

ـ « هيا .. لن ترحل من هنا قبل أن نشرب شيئًا .. »

نظر لى (ألكسندرييف) بمعنى ألا مفر من قبول الدعـوة .. ومشى مع الرجل مبتعدين ..

تخلفت عنهما قليلاً لأرقب الأبقار التـى تمـرح فـى الحقـل بشكل لا تـراه إلا فـى أفـلام الغرب الأمريكيـة .. هنـا أثــار انتباهى شىء غريب ..

★ ★ ★

٥- علاء عبد العظيم ..

كانت تلك البقرة تمشى وسط أترابها محاولة الاحتفاظ بكرامتها .. لكنى رأيتها تترنح ..

تمشى تلك المشية المترنّجة كأنها تمثل دور السكير فى أحد أفلامنا العربية القديمة .. فى أدائها نوع من المبالغة .. تحاول ألا تصطدم بالأبقار الأخرى لكنها تفشل ..

كان ضرعها منتفخًا ومن الواضح أنها لم تحلب منذ فترة .. لكن هذا ليس سببًا على ما أظن ..

فى النهاية سقطت على قائميها الأماميين .. بدا لى الأمر مثيرًا للشفقة .. كلما كان الحيوان ضخمًا أكثر بدا لك مشهد تعثره محطمًا للقلوب ..

بعد لأى نهضتْ وواصلت المشى ..

وبدون أن أقرر شيئًا كانت تلك الغريزة التى تنتاب كل من يمسك كاميرا قد انتابتنى .. التقطت لها عشر صور على الأقل فى كفاحها المريع من أجل الوقوف على قدمين ..

ثم وقفت أرمق المشهد المهيب للحظات ..

لقد ابتعد الرجلان كثيرًا لذا رحت أركض للحاق بهما .. هكذا رحت أهرول عبر ممشى من الحجارة يمر محاذيًا لسياج الأبقار ..

كان (جورج) يدس مفتاحًا فى باب كوخ خشبى وهو لا يكف عن الثرثرة .. عندما لحقت بـ (ألكسندرييف) وانا ألهث ..

قلت له وأنا أشير للوراء :

ـ « ثمة بقرة مريضة جدًّا ! »

قال فى دهشة :

ـ « أين ؟ »

سمع (جورج) كلامنا فالتفت لنا وقال للطبيب فى لهجة توحى بالاستهتار :

ـ « لا تحاول أن تلعب دور الطبيب اليوم .. أنت ضيفى .. »

قلت أنا بحماس غبى كالعادة :

ـ « لكنها تترنح كأنها سكرى .. تصطدم بالسياج وبقريناتها .. »

قال (ألكسندرييف) وهو يدخل الكوخ :

- « لا تقلق .. هنا أطباء مشهود لهم بالكفاءة .. أعط لقيصر ما لقيصر .. »

هكذا دخلت محاولاً تجاهل الأمر .. كان (جورج) يفتح خزانة ليخرج منها زجاجة بها شراب ما ، فهززت يدى أن يعفينى من هذا .. صب له وللطبيب الروسى .. وراحا يجرعان وهما يلهثان فى استحسان .. ثم بدءا يتكلمان عن الأحوال ..

هنا قاطعتهما قائلاً :

- « ما هى الأمراض التى تجعل الأبقار تترنح سكرى ؟ »

نظر لى (ألكسندرييف) فى غير فهم .. احتاج إلى ثوان حتى يخرج نفسه من حفرة ليدسها فى حفرة أخرى ، ثم قال :

- « هناك قائمة لا بأس بها .. غيبوبة (ألكيتوز) .. داء السعار .. حمى اللبن .. لا أعرف لماذا تشغل نفسك بهذه التفاصيل ؟ لاحظ أننى الطبيب البيطرى ولست مهتمًا .. »

ـ « ربما لأنك الطبيب البيطرى .. لا يسهل أن يصيبك الذعر .. »

نظر لى ولم يعلق .. ثم واصل الكلام مع (جورج) ..

كنت قد قررت أن أتركهما بعض الوقت وأخرج لأرى تلك البقرة العليلة ..

وقفت فى الخارج أبحث عنها .. لا أراها عن قرب .. يبدو لى أنها توارت .. لكن منذ متى تختلف بقرة عن بقرة أخرى بالنسبة لمن ليس فلاحًا ولا مربى ماشية ولا طبيبًا بيطريًا ؟

ـ « أنت هناك ! تعال هنا ! »

هذا شخص يطالبنى ـ كما هو واضح ـ بألا أبقى هنا وإنما أن أكون هناك .. معه على الأرجح ..

كانت الصيحة لا تخلو من غلظة تقترب من الوقاحة .. استدرت بعدوانية لأرى من يتكلم فكانت المفاجأة أن هذا (جورج) نفسه .. لقد غادر الكوخ ليرى ما أفعله .. وقد أثار هذا دهشتى لأن علاقتنا اكتسبت بعض المودة .. لا أرى مبررًا لهذه الخشونة مع من صار يعرفه جيدًا ..

خرج (ألكسندرييف) لاحقًا به والكأس بعد في يده ، فالتفت له بنفس الغلظة وقال :

- « لا داعي للتجوال في كل مكان .. أرجو أن تفهمه هذا يا دكتور .. »

فتح (ألكسندرييف) فمه ليتكلم لكني قلت بسرعة :

- « لا تتعب نفسك .. لقد انتهت مهمتي هنا .. هل تأتي معي يا دكتور ؟ »

أفرغ ثمالة الكأس في جوفه ، ثم ناوله لـ (جورج) ولحق بي ..

قال وهو يجد السير متجهًا إلى حيث أوقف سيارته :

- « لا تتضايق .. إنهم مهذبون هنا لكنهم يكرهون أن يتدخل أحد في عملهم .. باختصار هو يريد أن يراك جالسًا في مكان واحد ولا تتواثب هنا وهناك كالصبية .. »

قلت مشاكسًا :

- « نسيت أن أجلب كرتي معي .. ذكرني بهذا في المرة القادمة »

أدار محرك السيارة وانطلقنا ..

إنـه ذلـك الحـافز الـذى يدفعك للنظـر إلـى الـوراء عندمـا يرمقك أحدهم بحدة ، والذى هـو قديـم قدم مجـىء الإنسـان إلى الأرض ..

لسبب ما استدرت للخلف بينما السيارة تبتعد ..

كـان الأخ (جـورج) يقـف علـى بـاب الكـوخ يرقبنـا فـى ثبات .. بدينا .. ضخمًا .. أصلع ..

ولسبب ما لم أحب نظرته تلك ..

★ ★ ★

لـم أعـد للبيـت فـى تلـك الليلـة إلا فـى سـاعة متـأخرة ، وعندمـا عـدت كـانت (برنـادت) قـد نـامت وإن أعـدت لـى العشاء ووضعته على منضدة المطبخ ..

كنت قد سهرت فى وحدة (سافارى) أكتب على منسق الكلمات البحث الذى طلبه (شيلبى) .. وقـد أضفـت للنص بعض الصور ، وطبعته .. وبدا لى شكل الأوراق دسـمًا موحيًا بالثقـة .. شتـان مـا بيـن الكـلام المطبـوع والمكتـوب بخـط اليد .. الأول صار رسميًا يصعب أن تنظر لـه إلا بجديـة ، أما الآخر فمحاولات تحتمل الخطأ والصواب .. يصعب عليك

أن تتعامل بخفة مع رجل متأنق يلبس ثياب السهرة كاملـة ، بينما يسهل أن تتعامل باستهتار مع من يرتدى منامة .. قد يكون الأول تافهًا كـالبرغوث وقد يكـون الثـانى عبقريًـا لا يهتم بمظهـره ، لكن النتيجـة واحدة .. وهو دليل آخر على أن المظهر ما زال خداعًا .. ليس المهم أن تكون بل أن تبدو .. وبحثى (يبدو) بلا أى جدال ..

رحت أطالع ما كتبت سريعًا .. بالفعل هو كلام فارغ غير علمى فى أكـثره .. لكن لنـأمل أن يقـع (شيلبى) فـى فـخ بذلة السهرة المعتاد ..

فـى الصـباح كـان أول خبر عرفتـه هـو وفـاة العجـوز (دوجمـارا) .. تلـك المـرأة التـى فقدت عقلهـا وابنهـا .. والآن فقدت حياتها ..

قلت بالعربية : « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .. »

بداية سوداء لليوم .. لست من هواة التطيُّر لكن وفاة مريـض ليست بالخبر الذى يجعلك ترقص طربًا لدى استيقاظك من النوم ..

خاصة أننى كنت أحمل قدرًا لا بأس به من التعاطف نحو تلك المرأة ..

* * *

« ستظل هذه المرأة معى لفترة لا بأس بها .. ثمة مريض أراه فأعرف على الفور أنه صار (مريضى) .. إنه شىء يشبه الحب من أول نظرة .. سمّه التعاطف من أول نظرة .. »

★ ★ ★

سألت د . (جابرييل) فى حيرة :

ـ « وكيف ؟ كانت حية جدًا عندما رأيناها آخر مرة .. لم أتوقع أن يتم الأمر بهذه السرعة .. »

هز كتفيه فى حيرة وقال :

ـ « لقد أصيبت بنوبة تشنجية .. ولم تستطع الممرضة استدعاء الطبيب المقيم بالسرعة الكافية .. لقد ابتلعت المرأة لسانها كما يحدث مع مرضى الصرع أحيانًا .. وعندما وصل الطبيب كانت قد لفظت أنفاسها .. »

رأى وجهى المحبط فلكمنى فى كتفى وقال :

ـ « لا تنكر أنها استراحت من ميتة بطيئة طويلة .. »

فكرت قليلاً ثم قلت :

- « هل يمكن تشريح جثتها الآن ؟ سوف نعرف التفسير لحالتها .. »

قال وهو يثبت المسماع حول عنقه :

- « لها أقارب قد تسلموا جثتها ولم يقبلوا السماح بتشريحها .. لا توجد شبهة جنائية أو شبهة إهمال .. لن يقبلوا تشريحها لمجرد إرضاء فضولك العلمى »

كانت هذه هى المشكلة الدائمة هنا .. لأسباب اجتماعية أو دينية عديدة لا يمكن تشريح أى شخص له أهلية .. وكان هذا يعنى أن الميت يأخذ سره معه إلى القبر .. كنت أمقت المجلات التى تقدم ألغازًا ثم لا تنشر حلها فى الصفحة الأخيرة بالمقلوب .. نحن هنا نتعامل مع ذات التجربة على نطاق أكبر .. لكن دعنا لا ننس أن نهضة الطب قامت على تشريح جثث المرضى .. ولولاها لظللنا فى عصر (أبقراط Hippocrates) ..

رأى الإحباط على وجهى فقال باسمًا :

- « لا تبدو فى خير حال اليوم .. سأقدم لك خدمة عمرك .. يمكنك أن تذهب حيثما يحلو لك .. أنا لا أريدك هنا . »

كنت أرقص طربًا .. لم أطرد من أماكن كثيرة فى حياتى ، لكنى بدأت أرى الأمر معقولاً .. ليس كريهًا إلى هذا الحد ..

وهكذا سرعان ما كنت أفر من أمامه قبل أن يغير رأيه ..

★ ★ ★

وقف (شيلبى) بطريقته المسرحية الاستعراضية فى وسط العنبر ، وهتف :

ـ « الآن حان الوقت كى تعرفوا شيئًا مهمًا أو اثنين .. »

فلو طلب اثنين ليكبلاه بالسلاسل لما اندهشت كثيرًا .. لو كان فى مصر لصار أنجح حاو فى الأسواق ..

وبدأ يلقى علينا محاضرة مطولة عن (سرطان بيركيت) .. وهو يختلس النظر إلى الممرضات الحسناوات ليتأكد من أن كل واحدة منهن توشك على فسخ خطبتها أو دس السم لزوجها ، لأنها وجدت أخيرًا الرجل الذى كانت تحلم به ..

لما انتهى اقتربت منه ودسست الأوراق فى يده وقلت بصوت خفيض ، وأنا أتحاشى النظر لعينيه :

ـ « هذا هو البحث الذى طلبته .. »

نظر إلى الأوراق وأزاح خصلة الشعر الأشيب التى تهدلت على عينه وقال :

ـ « هذا جميل .. جميل .. أحسنت صنعًا .. »

الحمدلله أنه أحمق مما تصورت .. تذكرت (سلفادور دالى Dali) الفنان السريالى العالمى عندما كان فى كلية الفنون ، والذى سهر ليلة الامتحان يدعو الله أن يمتحنوه فى الأجزاء الضئيلة التى استذكرها .. فى الصباح كان سؤال اللجنة الوحيد هو ذلك الجزء الذى حفظه عن ظهر قلب ! نهض فى كبرياء وغادر الغرفة .. فلما سألوه عن سبب انصرافه قال : « أكره أن يمتحننى من هم أكثر غباء منى ! »

أحيانًا يكون هذا مفيدًا ..

وابتعدت بضع خطوات لولا أن سمعته ينادينى وقد استرعى انتباهه شىء :

ـ « هيه ! (علاء) ! ما بال هذه الأبقار ؟ »

عدت لأقف جواره واختلست نظرة إلى صورة كنت قد طبعتها ضمن نص البحث .. تلك البقرة التى تعجز عن الوقوف فى كبرياء وكرامة ..

قلت له :

ـ « يقول الطبيب البيطرى إن هذا لا يثير القلق .. »

قال فى عصبية وهو يبدل عويناته ليرى أفضل :

ـ « أى جحش قال لك هذا ؟ هل لديك صور أخرى ؟ »

هززت رأسى ..

ـ « على جهاز الكمبيوتر فى المكتبة .. نعم .. إنها صور رقمية .. »

ـ « إذن تعال معى .. »

ورسم على وجهه سمات رجل العلم القلق .. أنت تعرف أنه ممثل بالفطرة .. منذ ثوان كان يمثل دور الأستاذ الفخور بتلاميذه .. الآن صار قلقًا .. وفجأة تقمص دور ممثل المسرح الذى فرغ من فقرة رائعة ، فانحنى بأناقة أمام الطبيبات والممرضات الحسناوات وقال :

ـ « يؤسفنى أن هذا الشاب بحاجة لعلمى فى مكان آخر .. لكن لنا لقاءات أخرى يا سيدات .. »

وانسحب فى رشاقة ..

رباه ! أنا أحب هذا الرجل فعلاً .. لو لم يكن في وحدة (سافاري) هو و(بارتلبيه) فماذا كان سيبقى لي ؟

وفي المكتبة راح يراجع الصور على شاشة الكمبيوتر .. أنت تعرف هذا التأثير عندما تقلب الصور بسرعة فتبدو كأنها تتحرك .. بالفعل شعرت أن البقرة تتعثر وتنهض مائة مرة ..

في النهاية أشعل سيجاره الغليظ المميز وقال وهو ينظر لي بخطورة :

ـ « (علاء) .. نحن بصدد حالة من (عته الأبقار إسفنجي الشكل) .. »

نظرت له في عدم فهم فقال :

ـ « أتكلم عن جنون الأبقار يا فتى ! »

* * *

٦ ـ البريونات ..

كما قلت آنفًا؛ يلتقى الطب البشرى بالبيطرى فى أكثر من موضع .. لكن اللقاء بدا واضحًا بشدة فى موضعى أنفلونـزا الطيور وداء (ياكوب كروتسفلت) .. والداء الأخير أشـهر من نار على علم ، خاصة إذا ما عرفت أنه هو بشكل أو بـآخر ما يدعى بـ (جنون الأبقار) .. لو فتحت أية جريدة فى أية لحظة فأنا أضمن لك أن تجد خبرًا عن هذا المـرض .. لقد تخطى المرض كتب علم الأمراض ليصير قضية صحفيـة يتابعها الرأى العام فى جشع .. صارت له ذات أهمية الوشم الجديد الذى رسمته (بريتنى سبير) على ذراعها ، وانفصال (براد بيت) عن (جنيفر أنستون) .. وإنه لشرف عظيم حقًا !!

هذا المرض ـ جنون الأبقار ـ يدعى (عته الأبقـار إسفنجى الشـكل Bovine Spongiform Encepholopathy) كمـا سمعتم (شيلبى) يسـميه .. والسبب واضـح .. إنـه يحيل مـخ البقرة إلى شىء يشبه الإسفنج ..

إن الأعراض فـى الأبقـار بسـيطة جدًا .. تصـير البقــرة عصبية مهتاجة ، ثم تفقد ثبـات مشيتها إلـى أن تعجز مـع الوقت عن الوقوف .. والمرض قاتل بلا أية مناقشة ..

القصة طويلة وأكثركم لا يحب التفاصيل ، لكن لا بد من أن أذكر باختصار شديد أن المرض يسببه أغرب كائن عرفه العلم حتى اللحظة .. إنه بروتين مأخوذ من الخلية المصابة ذاتها .. لو أردت أن تتخيل الأمر فلتتصور أن فمك قرر أن طعمك لذيذ وبدأ فى التهامك .. الأغرب أن هذا بروتين لا يمكن تصنيفه كفيروس أو بكتريا .. بروتين اكتسب القدرة على الحياة وعلى أن يصيب الخلايا من دون أحماض نووية ، تلك التى اصطلح العلم على أنها ضرورية للحياة .. كيف يتناسخ البروتين من دون حمض نووى ؟ كل من يعرف شيئا عن علم الأحياء يعرف أن هذه الفرضية مستحيلة ، لكن العلماء اضطروا لقبولها فى النهاية .. والحقيقة أن البروتين لا يغير تركيبه بل يغير شكله .. ثم إنه لا يذوب فى الماء كأى بروتين يحترم نفسه .. يتكاثر فى الخلية العصبية حتى يدمرها تمامًا.

هذا البروتين العجيب هو ما يطلقون عليه اسم (بريون Prion)(*) .. وقد اكتشفه عالم أمريكى يدعى (بروسينر Prusiner) عام ١٩٨٢ .. وفيما بعد سينال هذا العالم ـ عن جدارة ـ جائزة نوبل ..

(*) اشتقاق لاتينى معناه (البروتين المعدى) ويُنطق على مقطعين هكذا (دبرى ـ أون) .. لكن من العسير أن تكتبه بهذه الطريقة ..

قدمت البريونات تفسيرًا لا بأس به لعدد من أمراض الجهاز العصبى التى كان يعتقد أن الفيروسات البطيئة تسببها .. هل تذكر لفظة (كوروkuru)؟ كانت لنا قصة مع (الكورو) .. ذلك المرض الذى يجعل المريض يضحك حتى الموت .. قابلناه لدى إحدى القبائل الأفريقية واتضح لنا أن هذا المرض الذى لا يعرفه الطب خارج (بابوا غينيا الجديدة) قد بلغ هذه القبيلة لأنها مارست ذلك النشاط البشرى المنسي : أكل لحوم البشر .. بالتحديد أكل أمخاخ الموتى لاتقاء شرورهم .

(الكورو) نموذج ممتاز لأمراض البريونات .. هناك قائمة لا بأس بها من تلك الأمراض فى البشر .. على رأسها داء (ياكوب كروتسفلت) الشهير الذى وصفه الألمانى (كروتسفلت) بالاشتراك مع ألمانى آخر هو (ياكوب) .. وداء الأرق العائلى المميت .. فى الماشية هناك داء (عته الأبقار إسفنجى الشكل) وفى الخراف هناك داء (الحكاك Scrapie) ..

على أن بعض العلماء لم ترق له فكرة البريونات .. ويرى أنها نتيجة وليست سببًا للمرض .. السبب هو

التسمم العام نتيجة لتلوث البيئـة والأطعمـة الصناعيـة التـى تتناولها الحيوانات ، ممـا يؤدى إلـى تكـون هذه الشظيات البروتينيـة العجيبـة .. أو كمـا يقولـون : الذبــاب لا يصنــع القمامة .. القمامة هى ما يجذب الذباب !

على كل حال يجمــع الفريقـان علـى أن القصـة بـدأت مـع تلك العادة الجديدة : إطعام الماشـية بقايـا الحيوانـات الميتـة التى تم فرمها .. وهى مخالفة صريحة لقانون الطبيعة الذى جعل المواشى تأكل العشب ولا تأكل اللحم ..

ولا تنتهـى الدائـرة هنـا .. إن الماشـية التـى هلكـت بهـذا الداء لا تذهب هباء ، وإنما يتم طحنها لتطعم بهـا الماشـية الأخرى السليمة ! ويقال إنه فى عام واحد التهمت الماشـية فى الولايات المتحـدة وحدهـا ٨٠٠ مليون رطـل مـن اللحـم البقرى المفروم . دعك مـن أنهـم يفرمـون كذلـك القطـط والكلاب التى تم إعدامها والتى ماتت فى حوادث الطريق !

لقد اجتاح داء جنون الأبقار أقطارًا كثيرة ـ فى أوروبا علـى الأرجح ـ لكن بريطانيا تتمتــع بمكانـة خاصـة بالنسـبة لهذا المرض اللعين ..

لكن يظل السؤال الأكبر الذى لم يجب عنه أحد صراحة حتى اليوم : هل ينتقل الداء من الأبقار والماشية إلى الإنسان ؟ هل تصاب الأبقار بالجنون توطئة لأن يصاب الإنسان به ؟

وماذا عن اتهامات هرمون النمو المخلق فى الحيوانات والذى يحقنون به البشر ؟ قيل إن هذه الهرمونات الملوثة تنقل البريون إلى البشر ..

والغريب أن إعدام الماشية وحرقها لم يكن كافيًا للتخلص من البريون .. لهذا تدفن بريطانيا بقايا الأبقار فى خنادق خاصة كأنها مخلفات نووية !

فترة حضانة المرض طويلة جدًا .. حوالى عشرين عامًا .. لا تنس أنهم يعتبرونه من الفيروسات البطيئة .. لكن فترة الحضانة قد تقصر إلى سبعة أعوام فى الماشية ..

أما عن الجانب المشرق فى الصورة ، فهو أن لبن الأبقار لم يتهم بنقل أية عدوى حتى اليوم .. المرض لا ينتقل بالتعامل مع الحيوانات أو ملامستها .. لكنه ينتقل بالتهامها أو استعمال مادة استخلصت منها مثل مساحيق التجميل .. السمن .. الهرمونات .. الزلال .. الزبد .. مزارع القرنية .. إلخ ..

★ ★ ★

نأتى الآن لداء (ياكوب كروتسفلت CJD) .. الداء الـذى وصفه العالمان منذ زمن بعيد ، وإن كانا لم يعرفا سببه .. إن تشـخيص المـرض يشـبه عمليـة حفـر قبر للمريـض .. فالوفاة محتومة خلال عام على الأكثر ..

لم يسمع معظم الأمريكان عـن الإيدز حتـى مـات الممثل الشـهير (روك هدسـون) بـه ، وكـذا لـم يسـمعوا عـن داء (ياكوب كروتسـفلت) حتـى مـات بـه مـدرب رقص شـهير اسمه (جورج بالانشين) .. بالنسـبة لـ (روك هدسـون) كان الخبر فضـيحة لأنه دلّ على أن الممثل الشـهير كـان ــ عدم المؤاخذة ــ رقيعًا .. أما خبر وفـاة مـدرب الرقـص فـلا يعنى إلا أن الفقيد كان نهمًا يحب التهام اللحوم ..

هذا مـرض قـاتل يصيـب المـخ .. أعـراضـه الهلوسـة والنسـيان وتغـيرات الشـخصية والحركـة غـير الثابتـة كالسكارى .. يظهر فى سن الخمسين عـادة وإن كـان هنـاك مراهقون قد ماتوا به ..

هناك أنواع وراثية من المرض .. أى ان البريون يظهـر فى المخ من تلقاء ذاته .. وأنواع ينتقـل فيهـا الـبريون من مصـادر خارجيـة .. عامـة لا يعتـبر أكـل لحـم البشـر مـن

الأنشطة المأمونة المحببة للنفس .. وإننى لأنصحك بالتخلى عن هذه العادة لأنها تنقل البريون بسهولة تامة .. نقل الدماء يجلب المرض معه وهو اكتشاف جديد مخيف .. ولهذا منعت السلطات البريطانية كل من تلقى دمًا بعد عام ١٩٨٠ من التبرع بدمه للأبد ..

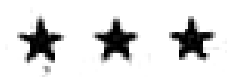
التهام لحم الأبقار المريضة متهم كذلك وإن كانت التهمة لم تثبت قط .. لكن العلماء يسألونك : أين يوجد أكبر تجمع لداء (ياكوب كروتسفلت) على الخارطة ؟ إنه فى بريطانيا .. وأين يوجد أكبر عدد من الأبقار المجنونة ؟ نعم .. فى بريطانيا أيضًا .. هل يعنى هذا شيئًا ما ؟ على أن هناك إحصائيات خادعة على كل حال .. مثلاً لوحظ استهلاك عال بشكل واضح للأحذية الكبيرة أثناء الحرب العالمية الثانية .. فى الوقت ذاته مات ذكور كثيرون .. فهل يمكن استخلاص حقيقة علمية تقضى بأن الرجال الذين يلبسون أحذية كبيرة يموتون أكثر من غيرهم ؟!!

حتى يمكن إثبات هذه الحقائق يبقى الناس خائفين مترددين ، وتنهار تجارة اللحوم فى كل دولة تمشى فيها بقرة مترنحة ..

لا يوجد علاج للمـرض وإن كـانت هنـاك دراسـات حـول حقن مادة تدعى (البنتوستان Pentostan) مباشـرة فـى المخ .. المادة معروفة منذ زمن وكانت تستخدم لعلاج التهابـات المثانة .. وهى رخيصة يتم استخلاصها من معالجة نشـارة الخشب بحمض الكبريتيك .. ربمـا تعد هذه المـادة بـالكثير لكن مازال الوقت مبكرًا للحكم ..

(يـاكوب كروتسـفلت) .. الأرق العـائلى المميـت .. (جيرتسمان شتروسلر) .. (كورو) .. جنـون القطـط إسفنجى الشكل .. الحكاك .. عته الأبقار إسفنجى الشـكل .. عته فئران المنك المعدى .. كلها أسمـاء معقدة لكنها تحكـى القصة ذاتها .. قصة تتلخص فى كلمة واحدة : (بريون) ..

كـابوس جديـد أهداه القرن العشرون للقـرن الـذى يـأتى بعده ..



٧- برنادت

قلت لـ (شيلبى) وقد بدا الذنب على وجهى .. ذات وجه الصبى الذى هشم شيئًا نفيسًا وهو لم يتعمد هذا :

ـ « هل أخبرتك الصور بهذا كله ؟ »

قال فى ثقة :

ـ « لست طبيبًا بيطريًا .. لكنى أعرف جيدًا معنى أن تمشى بقرة كأنها سكرى .. »

ـ « تحدث ذلك البيطرى الروسى عن أسباب أخرى .. مثل (الكيتوز) وداء السعار وحمى اللبن . لاحظ أن ضرعها كان منتفخًا .. »

ـ « إذن عليه أن يثبت لى أن هذا ليس جنون أبقار ، وبعدها سأنحنى له فى احترام وأنسحب .. »

ابتسمت فى سرى وقد تخيلته ينحنى بذات الطريقة المسرحية التى انحنى بها للطبيبات .. وسألته :

ـ « وكيف يثبت هذا ؟ »

ـ « تشريح المخ طبعًا .. لو شرحنا هذه البقرة ولم نجـد أن مخها قد تحول إلى قطعة إسفنج ، ولو لم نجد البريونات فى خلاياها العصبية .. عندئذ فقط سأسمح له بأن يتكلم عن داء السعار .. وإلا اشترينا نحن جميعًا المزرعة .. »

لم أفهم هذا الجزء الأخير فسألته :

ـ « لماذا نشترى مزرعة الأبقار يا سيدى ؟ ما دخل هـذا بالـ ؟ »

ضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ « يا لك من غرير ! متأسف .. (اشترى المزرعـة) تعبير عامى أمريكى معنـاه (مـات) .. مثل تعبير (ركل الصندوق) .. أتكلم عن مزرعة مجازية .. »

ثم أخرج من جيبه قرصًا مرنًا ودسه فى الكمبيوتر ، وقال :

ـ « بعد إذنك .. »

وسرعان ما نسـخ مجموعـة الصور التى عرضتها عليـه .. وأعاد القرص إلى جيبه ..

★ ★ ★

قالت لى (برنادت) وهى تصبُ بعض الشاى الذى تعلمت صنعه على الطريقة المصرية :

ـ « ولماذا لم يتخذ (شيلبى) خطوات جدية أخرى ؟ »

كنت أنا متربعًا على الأريكة أقلب صفحات الجريدة .. قلت لها فى شرود :

ـ « هو قد أخبر (بارتلبيه) ، و(بارتلبيه) رأى أن هذا ليس شأننا وإننا لن نبنى شيئًا على أساس صورة فوتوغرافية .. قال إن مزرعة (سيربنييته) هذه مزرعة حديثة مجهزة .. بل إن مستواها لا يختلف عن أية مزرعة راقية فى أستراليا أو الولايات المتحدة .. ولديهم أطباء فى غاية البراعة .. »

ناولتنى كوب الشاى وطوحت خفيها جانبًا ثم تربعت على الأريكة جوارى وقالت :

ـ « يبدو كلامه على شىء من المنطق .. ثم إن مشاكلنا هنا كثيرة جدًا .. لن نبحث عن مشاكل فى بيوت الآخرين .. يذكرنى الأمر بالأم التى تعجز عن تربية طفلها فتذهب لتبنى الأطفال الذين يلهون فى الشارع .. »

تنــاولت رشـفة مـن الشــاى .. ليس بالطريقـة المصريــة بــالضبط .. هنــاك شـىء مـا ردىء فيـه ، لكن بــالطبع هــذه أشياء لا تقال للزوجات ..

- « شففففت ! هذه نقطـة .. النقطـة الأخرى التــى يصر عليها المدير هى أن داء (عتـه الأبقـار شبيه الإسفنجى) هذا لم يظهر قط فـى إفريقيا .. ليس مـن مشـاكلها .. إنــه يوشك أن يكون منحصرًا فـى العـالم المتقدم .. بـالذات فى بريطانيا .. حتــى الولايـات المتحـدة تنكر أنـه عندهـا برغم عشرات التقارير عن وجوده هناك .. »

- « يبدو لى رأيًا مهمًا .. »

- « فيما عدا نقطـة واحدة .. هـى أن (شيلبى) بـارع حقًا .. إنه طاووس مبهرج ثرثار لكن رأسه الوسيم يحـوى علمًا .. يحوى الكثير منه .. »

رحنا نتابع شاشة التلفزيون لدقائق قبل أن تسألنى :

- « هل كلمت المدير عن سفرى معك إلى البلد الأفريقــى الجديد ؟ »

كنت أكره هذا الموضوع .. هى تريد السفر معى وأنا لا أريد السفر أصلاً .. لا أعرف أى بلد ينوون إرسالى له لكنه فى الجنوب على الأرجح .. ربما جنوب إفريقيا أو (ناميبيا) أو ....

قلت لها فى ضيق :

ـ « شفففت ! لم أحدثه .. عندما أحدثه عن سفرك معى فمعنى هذا أننى قبلت سفرى أنا ! هل تذكرين تلك النكتة عن الفتى الذى يحكى عن خلاف بسيط بينه وخطيبته : أنا أريد أن يعقد الزفاف فى فندق كبير .. هى تريد فسخ الخطبة أصلاً ! قضية سفرك قضية تالية لقضية سفرى .. ولن أناقشها إلا عندما أكتشف أن العجوز متصلب الرأى كالخنزير البري »

رسمت على وجهها (التشنيكة) المحببة وقالت بلسمة :

ـ « وهو بالفعل كذلك .. والآن غير لنا قناة التلفزيون هذه »

★ ★ ★

كانت هى أول من هزنى ليوقظنى ..

لقد سمعت الصوت قبلى بينما كنت أنا فى ذلك العالم الذى ألعب فيه الشطرنج مع (بوذا) شخصيًا بينما يحاول (أبو العلاء المعرى) ألا يتدخل كى لا يفسد اللعب .. وفجأة راح (كاسترو) يهزنى بعنف فنظرت له فى غيظ .. ماذا تريد منى ؟

ـ « هناك من يتحرك فى الصالة ! »

لم يكن (كاسترو) قائل هذا ولكن (برنادت) .. وخلال ثانيتين كنت قد عدت لرشدى .. نعم . بالفعل هناك صوت بالخارج ..

المشكلة أن بيتنا من طابق واحد .. وأنه محاط بحديقة .. وأنه منعزل عن (سافارى) كما تعرف .. لا ينقصنا إلا تعليق لافتة تقول : « مرحبًا باللصوص » .. لكن بالفعل يبدو لى أن المنطقة آمنة .. الناس بسطاء أمناء غارقون فى مشاكلهم الخاصة وفقرهم .. ثمة نوع من الفقر يجعل الجريمة ذاتها مستحيلة .. كنت أعتقد هذا ..

ويبدو أننى كنت غبيًا ..

نهضت حافى القدمين وأضأت النور ..

وكأنني فتحت أبواب الجحيم .. لقد انفتح باب الغرفة فجأة واندفع ثلاثة رجال ..

رجال من السود هم .. في ثياب بسيطة فقيرة .. وأدركت من عيونهم المتسعة أنهم أكثر ذعرًا منا .. هذه علامة خطرة وغير مطمئنة لأن انفلات الأعصاب هو من سيملي قواعده ..

ثلاثة رجال في يد كل منهم سكين عملاقة مخيفة اللون .. وأحدهم كان يحمل حبالاً ..

وقبل أن أفهم ما يحدث جيدًا كان أحدهم قد وثب نحو الفراش ليلوي ذراع (برنادت) خلف ظهرها ويضع السكين تحت ذقنها .. كان يرتجف .. وكما قلت كانت علامة خطرة ..

وقفت في غباء عاجزًا عن قول أو عمل شيء .. حافي القدمين بالفانلة الداخلية وسروال المنامة .. رباه ! أنا هش ! هش جدًا ! أعتقد أنني لو كنت بثيابي وحذائي لتصرفت بشكل أفضل ..

قلت بصوت مبحوح :

ـ « لا تؤذوها .. اسمع .. »

وأشرت إلى ثيابى المعلقة على المشجب خلف الباب :

- « هناك .. مال .. مال فى الجيب .. هل تفهم الفرنسية ؟ »

قال أحدهم بفرنسية رديئة وصوت غليظ راجف :

- « لا مال يا دكتور .. لا مال .. »

كان يتراجع ليكون الحائط وراء ظهره .. وقد بدا كأننى أنا من يهدد حياته .. ألعن مجموعة من الهواة ناقصى الاحتراف رأيتها فى حياتى .. لو كان (فان دام) هنا لاستطاع إنهاء الموقف فى ثوان ..

قال وهو يواصل الرجفة :

- « هناك فيلم .. فيلم قمت بتصويره فى المزرعة .. مزرعة (سيرينتيه) .. نحن نريد هذا .. »

تبًا .. هذا آخر ما توقعت سماعه !

لا يتسع الوقت كى أحلل .. رفعت يدى بمعنى أننى موافق ..

فى هذه اللحظات كانت (برنادت) تخشى أن تتحرك .. فقط عيناها الخائفتان تلاحقاننى .. عينان تبللتا لكن الدموع

تخشى أن تنهمر .. لذا ظلت حيث هى كأنها غطاء زجاجى على المقلتين .. شعرها الأشقر الأنيق يتهدل على وجهها وعلى نصل السكين .. (برناندتى) أنا ..

الحقيقة أن ظاهرة غير عادية بدأت تحل بى .. لقد بدأت أشعر بالغضب .. بالانتهاك .. أقدامهم القذرة تدوس بساط غرفة نومنا وأحدهم يؤذى هذا الملاك الرقيق .. كنت أعتقد أن أبطال القصص هم فقط الذين لا يخافون وإنما يغضبون .. وشعرت بنوع خفى من السرور لأننى غاضب فعلاً ..

اتجهت إلى خزانة الثياب ففتحتها غير مبال بعبارة محتجة قالها أحدهم .. أخرجت الكاميرا ثم ناولتها أحد الرجال .. ذلك الذى له شارب رفيع أبيض وسحابة على عينه اليسرى ..

تناولها فى لهفة ودسها فى جيبه دون أن يبعد عينيه عنى ..

قلت وأنا أنظر له فى ثبات :

ـ « الآن .. هل يجب أن أطالبكم بالرحيل ؟ »

نظر للآخر .. واضح أن لديهم واحدًا فقط يتكلم الفرنسية .
لكن شيئًا لم يحدث .. لم ينسحبوا ..

أثـار هذا قلقـى .. أولاً هم لم ينســحبوا .. ثانيًـا لمـاذا سمحوا لـى برؤية وجوههـم ؟ لـو كـانوا يضعـون علـى وجوههم جوارب أو عصابات لاطمأننت قليلاً ..

(ديان فوسى Dian Fossey) .. ظل هذا الاسم يـتردد في ذهنى غير مدعو ..

يدى ما زالت فى خزانة الثياب .. ثمة مزية مهمة للبيـت الضيق الذى نعيش فيه هى أن أى شىء يمكن أن يوجد فـى أى مكان .. وإلا فلماذا توجد المكـواة فى خزانـة الثيـاب ؟ كنت أعرف أنها يومًا ما ستهوى لتهشم قدمى أو قدمهـا .. يبدو أنها ستهشم اليوم شيئًا آخر ..

أتحسس المكواة .. ثقلها المطمئن فـى يدى .. أعرف أننى قادر على عمل أى شىء بها .. أى شىء ..

بالفعل جاءت اللحظة .. الأحمق الذى يهدد (برنـادت) أطلق سراحها .. ابتعد عنها بضعة سنتيمترات وهو يتكلم بالباتتويد مع الآخرين .. أخذت نفسًا عميقًا وقلت لنفسى إن هذه معركتى .. معركتى الأخيرة ..

بأقوى ما فى جسدى من غلٍّ وغيظ وخوف هويت بالمكواة على رأس الرجل الذى كان يهدد (برنادت) .. لم يصرخ أو يتكلم .. فقط هوى أرضًا كبالون مثقوب ..

لم أنتظر لأرى ما سيحدث بل هويت بالمكواة على الرجل ذى الشارب الأبيض الذى يقف جوارى .. كان قد انتصر على عنصر المفاجأة فتنحى جانبًا وفى اللحظة التالية هوت المكواة على صدغه فأطلق صرخة مروعة .. الرجال أصحاب الشوارب البيضاء يصرخون أعلى من غيرهم .. هذه قاعدة .. لم يسقط لكنى آذيته بشدة ..

كانت (برنادت) الآن تعلن عن تحرر حنجرتها .. صفارة إنذار من طراز فريد تدوى فى سكون الليل ..

فجأة شعرت بمن يسقطنى أرضًا .. وقبل أن أفهم ما يجرى انهالت على الركلات واللكمات .. ركلات ولكمات .. ركلات ولكمات .. فى كل مرة أحسب أن فرصتى جاءت لأنهض وأرد لكن تلك الفرصة لم تأت قط ..

وفى النهاية فقدت الإحساس باللحظة ولم أعد أعرف من أنا ..

★ ★ ★

٨ - موريس بارتلييه ..

قلت لرجل الشرطة الذى جاء يعاين ما حدث :

- « لم يعرف الحمقى أن هناك نسخاً من هذا الفيلم فى كل مكان .. هم لا يعرفون معنى الصور الرقمية أصلاً .. آى ! »

كنت أتحسس الكدمات على وجهى . لقد تحولت إلى كتلة من العجين فعلاً ، وكلما تحركت فى اتجاه عوى وحش متوار لم أعرف أنه هنالك .. النتيجة ضلع مشروخ على ما يبدو .. سن ناقصة .. تورم حول العينين .. هؤلاء الأفارقة ضخام الأجساد حقاً وهى حقيقة عرفها كل لاعب كرة مصرى التحم معهم فى مباراة دولية ، ثم إنهم يضربون بلا حذر ..

كانت القصة كما حكتها (برنادت) هى أنهم ضربونى قدر ما استطاعوا .. لكن صراخها كان كفيلاً بأن يوقظ المنطقة كلها دعك من رجلهم الذى تكوم بلا حراك ، لا يعرفون إن كان قتيلاً أم فاقد الوعى ..

لهذا اكتفوا بتحويلى إلى عجين ، ثم حمل الرجلان ثالثهما وهرعا يفران ..

قلت لرجل الشرطة :

ـ « يسهل القبض عليهم الآن . لا أعرف إن كان ذلك الذى هويت على رأسه بالمكواة قد مات أم تهشم رأسه فحسب .. ربما (اشترى المزرعة) .. »

نظر لى فى غباء فتذكرت أن تعبيرات (شلبى) لم تصل هنا .. لذا أردفت :

ـ « لكنه على الأرجح سيطلب العون الطبى .. دعك من أنهم غير محترفين على الإطلاق .. مجرد ذئاب مذعورة ..»

ثم قلت وقد تذكرت أننى أغبى مما حسبت :

ـ « دعك من أنهم يعملون فى مزرعة (سيرينتيه) .. بالتأكيد يعملون هناك .. إننى أتهم عمال تلك المزرعة وأتهم من يدعى (جورج آكيدى آكو) .. »

نظر لى رجل الشرطة الكاميرونى مفكرًا .. ثم أخرج لفافة تبغ دسها فى فمه .. وقال :

ـ « لا .. ليس (جورج) .. إن الكل يعرفه ويحبه .. »

ـ « وأنا أتهمه ! لا أرى أى تعارض ! »

الكل يعرف (جورج) ويحبه .. إن لهؤلاء الناس ذوقًا غريبًا على كل حال .. الرجل وغد .. هذا واضح تمامًا .. وغد ونذل وكاذب ولن أثق فيه ليرعى خنفساء مصابة بالجرب .. لكنك أحيانًا ترى ما لا يراه سواك .. لكم من فتاة أعرفها وجدتها مدلهة فى حب ذئب لا ينقصه إلا أن يسيل الزبد من شدقيه .. حقيقة واضحة أعجب كيف لا تراها .. لكنى إذ أنصحها تتهمنى بأننى غراب بين حقود .. وللأسف يتضح أننى على حق فى كل مرة ..

قلت لرجل الشرطة فى عصبية :

- « ما دمت تحب الرجل وتراه ملاكًا .. وأنا بالمناسبة لا أعتقد أن هناك ملاكًا بدينًا أصلع يمشى بالفانلة الداخلية .. ما دمت تحبه لهذا الحد فلتخبره أن الفيلم كان رقميًا وأن نسخة منه موجودة على كل جهاز كمبيوتر فى وحدة سفارى .. فلتخبره إننى وضعته على شبكة إنترنت وأرسلت نسخًا منه إلى منظمة الصحة العالمية واتحاد مربى المواشى وربما الأمم المتحدة كذلك .. قل له ألا يرسل صبية آخرين لتهديدى لأن الكل يعرف الآن .. »

لم يفهم جل ما قلت لكنه هز رأسه بمعنى أن ما أقوله مهم جدًا ..

لما انصرف رجال الشرطة الكاميرونيون ضغطت كيس الثلج على كدماتى ، ونهضت متوكئًا على (برنادت) أتفقد الدار .. يبدو أنه كان هناك أناس كثيرون وقد انصرفوا الآن ..

أقدام قذرة فى كل مكان .. مزهرية مقلوبة .. غبار ..

كانت هناك نافذة صغيرة بالمطبخ .. واضح أنهم استخدموها للدخول .. هذا درس آخر لى .. لا تجعل الثقة تدفعك إلى إهمال تثبيت قضبان حديدية على نافذة منخفضة ..

قالت (برنادت) وهى ترتجف :

ـ « كلما فكرت فى أننا كنا نائمين .. بينما هؤلاء يتسللون عبر نافذة المطبخ .. لقد مشوا فى دارنا ونحن لا نعرف .. »

ولم تواصل الكلام لكنى كنت أفهم ما تريد قوله .. ذلك الشعور بالانتهاك .. ذلك الشعور بفقدان الأمان .. أنت ترسم حول عالمك تلك الهالة وتتوقع ألا يخترقها أحد .. تلك الدائرة المقدسة التى توقن أنه لا يمكن أن يخطو أحد داخلها .. فجأة تدرك أنها كانت دائرة وهمية ..

فتحت خزانة الأدوية وأفرغت من علبة هناك بعض أقراص مضادات الالتهاب ، وابتلعتها وقلت :

- « أنت رأيت وجوههم .. هل كان يمكن أن يقتلونا ؟ »

هزت رأسها أن نعم ..

- « عندما وجدتهم لا يبذلون أى جهد لإخفاء شخصياتهم قررت أنهم سيتخلصون منا على الأرجح .. »

هزت رأسها من جديد أن نعم .. طبعًا .. ذكاؤها لم يكن موضع شك قط ..

(ديان فوسى) .. لهذا تردد الاسم فى ذهنى لحظتها ولم أدر السبب .. عالمة (ناشيونال جيوجرافيكس) التى حاولت أن توقف مجزرة ذبح الغوريلا فى رواندا .. ثم ذات صباح يقتحمون كوخها ليجدوها مقتولة .. السلطات تتهم صيادى الغوريلا الذين أرادت تلك المرأة أن تمنعهم من تحقيق أرباح هائلة .. لكن ما جدوى أن تتهم كيانًا هلاميًا اسمه (صيادو الغوريلا) ؟ نريد أسماء محددة نوجه لها الاتهام .. النتيجة أن دمها ضاع هباء .. ولا أستبعد أن هذا السيناريو كان مرشحًا للتكرار أمس ..

قلت مواصلاً افتراضاتى :

- « إذن .. ما رأيته فى تلك المزرعة كان خطيرًا .. خطيرًا جدًا .. أخطر مما توقعت .. »

هزت رأسها من جديد موافقة .. ثم قالت :

ـ « القصة واضحة لأى طفل .. هذه تجارة بملايين الدولارات .. ثم يظهر داء جنون الأبقار .. من ثم صارت هذه التجارة الرابحة مهددة .. هنا يأتى طبيب شاب لخرق يلتقط صورًا تثبت وجود هذا الداء فى المزرعة .. إن حياتك لا تساوى ثمن بقرة واحدة بالنسبة لهم .. »

نظرت لها فى حيرة وغمغمت :

ـ « إذن كنا نلعب دور (الرجل الذى عرف أكثر من اللازم) فى القصص البوليسية ؟ »

ـ « بالضبط .. »

ووقفنا ننظر إلى النافذة التى فتحوها عنوة ، ونحن نفكر فيما ينبغى أن نصنعه بعد هذا ..

* * *

قال (بارتلييه) فى عصبية ملوحًا بكفيه المكتنزتين الدسمتين :

ـ « مستحيل يا (علاء) .. لا يوجد عنه أبقار فى إفريقيا .. هذا كلام فارغ .. كأنك تتحدث عن حمى صفراء فى آسيا أو حمى (الضنك) فى إفريقيا .. »

قلت فى برود لأغيظه :

ـ « لو وجود بطريـق فـى القطب الشمالى .. أو وجـود دُنب قطبى فى القطب الجنوبى .. أعرف .. لكن الأدلة تقول إن هذا ممكن .. هؤلاء القوم لم يقتحموا بيتـى ويهـددوا زوجتى بالذبح لأنهم يريدون اقتناء كاميرا رقمية .. »

وجلست على المقعد العتيد الذى صار من معالم الكون لى وتأوهت من رضوض عظامى وقلت :

ـ « تذكر حينما انتشر وباء (الكـورو) فـى تلك القبيلـة .. لم نصدق ذلك لأننا قلنا إن الكورو لا يحدث إلا فـى (بـابوا غينيا الجديدة) .. ثم اتضح أن المرض قـرر أن يظهـر فـى مكان غير معتاد .. »

كان (آرثر شيلبى) جالسًا فـى وقـار ، يدخن السيجار ويحاول أن يبدو وسيمًا رائعًا .. فلما سمع كلامــى بدل من الساق التى يضعها فوق ساق وقال :

ـ « لنفترض جدلاً أن المزارعين هنـا بدءوا فـى إطعام ماشيتهم بلحم المواشى المفروم .. ألـن يؤدى هذا لظهـور الوباء ؟ »

صاح (بارتلبيه) وقد احمر وجهه كعرف الديك :

ـ « هنا فى إفريقيا ؟ لا يمكن أن تتحدث عن زحف الحضارة المؤذى .. ولا يمكن أن تتحدث عن فقر فى المراعى .. إن المراعى هنا بحالة طيبة .. ثم إن المرض يحتاج إلى أعوام عديدة من التراكم حتى يظهر .. »

قال له (شيلبى) بذات الوقار :

ـ « (موريس) .. هل تقبل المجازفة ؟ كان جنون الأبقار يتوسل لنا كى نشخصه لكننا تجاهلناه فى غباء .. »

نظر له (بارتلبيه) ولم يرد ..



تأخر فى فتح الباب عدة دقائق .. فواصلت الطرق فى إلحاح ..

فى النهاية انفتح الباب ورأيت وجه د.(ألكسندرييف) المربع الصلب .. كان هذا هو انطباعى عن الوجه الروسى منذ طفولتى .. لكنه بدا اليوم غير حليق مفتقرًا للحيوية ..

أصابته الدهشة فأنا لم أزره قط .. بل لم يخطر له أننى أعرف داره .. الشحوب الذى يغزو وجهًا شاحبًا أصلاً ..

قلت له بطريقة سمجة :

- « مفاجأة !! أليس كذلك ؟ »

هز رأسـه بمـا معنـاه أنهـا أقذر مفاجـأة مـرت بـه فـى حياته .. ثم سمح لى بالدخول ..

قلت من جديد :

- « لا تخـف مـن مظهـرى .. لقد تلقيت علقـة سـاخنة لا أكثر .. »

كانت شقته مريحة نظيفة ضيقة كمـا توقعت .. إنها قريبة من السوق الرئيس فى (أنجلوتنديرى) .. وكـان هنـاك جهاز كاسيت صغير يذيع موسيقا أعتقد أنها لـ (رحمانينوف) .. هناك لوحات بسيطة سخيفة معلقة هنا وهناك .. زجاجات خمر فارغة .. جرائد ملقاة على الأرض .. طبـق مـا زالت بـه بقايا وجبة وضع على منضدة صغيرة .. تلفزيون مفتوح على رسوم متحركة للأطفال لكن الصوت خفيض جدًا أو لا صوت ..

قلت له وأنا أجلس على أريكة :

- « عرفت العنوان من د . (مولينسار) .. آسف على قدومى من غير موعد .. »

شعرت بحركة فى الداخل .. ثمة ظل مر من خلف الستار .. ثم ظهرت زوجته (تاتيانا) وهزت رأسها لى بطريقة رسمية باردة :

ـ « زدراست فويتى .. »

قلت بالعربية :

ـ « أهلاً .. »

لو كانت تنوى ألا تستعمل إلا الروسية فلن أستعمل معها إلا العربية ولنر من ينتصر .. إما أنها غبية إلى درجة انها لا تستطيع حفظ بضع جمل بالفرنسية أو الإنجليزية ، وإما هى متعالية جداً لا ترى أن هناك لغة غير الروسية تستحق أن يتعلمها المرء .. فى الحالتين هى لا تستحق الرفق بها ..

لماذا تضع كل هذه الأصباغ تحت عينيها ؟ لماذا لا تكف عن استنشاق المخاط ؟

قلت للزوج الذى جلس :

ـ « نحن ميالون إلى أن نعتبر حالة البقرة التى رأيتها عته أبقار شبه إسفنجى .. ونحن نطلب تشكيل لجنة لفحص أبقار تلك المزرعة .. طبعًا لا قيمة لرأينا من دون رأيك .. »

نظر لى فى حيرة .. وكانت الزوجة قد جلست جواره فرحت أفحص وجهها بعناية .. كلا هى لم تجن .. لقد كانت تبكى .. هذا واضح .. الطبيب الروسى يعرف كيف يؤذى مشاعر زوجته كأى زوج آخر .. (رحمانينوف) يواصل استعراض عبقريته ..

قال لى وهو يصب لنفسه بعض الشراب فى كأس :

- « قلت لك إن هناك ألف تفسير لما رأيت .. دعك من إننى لم أر شيئاً .. »

قلت فى عصبية :

- « الأمر جد لا هزل فيه .. لقد كادوا يفتكون بى للظفر بالصور التى التقطتها .. »

- « وهل التقطت صورًا ؟ »

- « نعم .. وأعتقد أن هناك من رآنى وأنا أفعل وأخبر (جورج) صديقك العزيز .. »

عاد يتبادل النظر مع زوجته ثم قال :

- « وهل أعطيتهم الفيلم ؟ »

ـ « كاميرا .. لكن لا قيمة لها .. إن الصور تملأ وحدة (سافارى) الآن .. »

عاد يكرر فى إصرار :

ـ « ما رأيته لا قيمة له .. أنت بعيد عن حقل الطب البيطرى لهذا تبدو لك الأمور مطلقة .. سل أى طبيب بيطرى عن سبب تعثر بقرة أثناء المشى .. سوف يذكر لك قائمة لا بأس بها ويستخرج من مراجعه قائمة مماثلة .. »

ـ « نعم .. لكن سل أى طبيب بيطرى عن تعثر بقرة يحاول أصحابها بقوة السلاح منعك من ذكر ما تعرف .. لن تكون هناك إجابات كثيرة .. »

كنت أفكر .. هذا الإصرار من جانبه يبدو غير طبيعى .. هل هو متواطئ معهم ؟

برنامج رسوم متحركة فى التلفزيون .. منذ متى يمكن منع طفل من مشاهدة فيلم رسوم متحركة ؟ الزوجة تبكى

من جديد .. لم أره قط فى حال سيئة كهـذه .. يشبـه أبطـال الأفلام العربية الذين تتخلى عنهم حبيباتهم ..

أعتقد أننى أعرف ما يحدث هنا ..

فى النهاية رفعت رأسى وبكياسة سألته :

- « (بوريس) .. أين (كاتيا) ابنتك ؟ »

★ ★ ★

٩ - علاء عبد العظيم ..

إنهم يريدون الصمت ..

هذا هو ما عرفته من قصتى وما عرفته من قصة (ألكسندرييف) ..

إنهم يريدون الصمت ..

وهم من أجل هذا لا يتورعون عن شىء.

يقول لى وهو يرتجف ويحاول أن يصوب اللهب على لفافة التبغ المتدلية من فمه :

ـ « كنت من الحمق بحيث ذهبت إليهم فى اليوم التالى لزيارتك .. قابلت أصدقائى من البيطريين هناك .. ثم خطر لى أن أجول فى المزرعة منفردًا .. هنا فوجئت بالمشهد الذى وصفته لى .. بالضبط هناك خمسة أبقار على الأقل تمشى مترنحة .. سكرى .. أنت عبقرى أيها الزميل وعينك حساسة فعلاً .. هذا ليس (كيتوز) بحق السماء .. ليس سعارًا .. إنه الشىء اللعين ذاته .. لا يمكن أن يكون هذا إلا (عته الأبقار إسفنجى الشكل) .. هنا ؟ مستحيل ؟ »

لم يستطع التصويب فتناولت منه القداحة وأشعلت له لفافة تبغه .. نفث سحابة كثيفة ثم نظر لزوجته .. كانت تجلس جواره تغطى وجهها وتبكى .. لا أعتقد أنها تفهم ما يقال لكنها تعرف محتواه ..

أردف بصوت مبحوح :

- « أصابني الرعب .. جريت إلى البيطريين وقلت لهم إنه لا بد من أن يذيع الخبر .. لا بد من محاصرة المزرعة وعزلها .. لا بد من تشريح الأبقار الميتة قبل أن تُحرق .. لكنهم لم يأخذوا كلامى على محمل الجد .. »

سألته فى شك :

- « هل هم حمقى أم متواطئون ؟ »

- « متواطئون طبعًا .. لو جئت بطفل فى السادسة لقال لك إن الأبقار مريضة جدًا .. »

ثم نفث المزيد من الدخان وقال :

- « قالوا لى إنهم سيتولون الأمر .. طلبوا منى عدم إحداث شوشرة .. لكنى كنت مصرًا وقلت لهم إننى سأبلغ (يلوندى) بالأمر .. عندما جاء المساء كنت وزوجتى جالسين كما نحن الآن بينما (كاتيا) .. (كاتيا) خرجت لتلعب فى الفناء

الصغير .. إنها تربى كتكوتين هناك .. فجأة لم نسمع ضوضاءها .. خرجت زوجتى لتبحث عنها فلم تجدها .. ثم وجدت هذه الورقة معلقة على بابى .. الورقة .. . الورقة .. »

وراح يبحث فى جيوبه بطريقة هستيرية بلا جدوى .. فقلت فى نفاد صبر :

ـ « نعم .. نعم .. تهديد بخط رديء .. انس ما رأيت وإلا لن ترى ابنتك ثانية . لا تتصل بالشرطة .. كلام من هذا القبيل »

هز رأسه موافقًا .. ثم أردف :

ـ « لم أتحرك منذ تلك اللحظة .. أنا جالس هنا لا أفعل شيئًا .. فقط أتمنى أن ينتهى هذا الكابوس .. »

ـ « و(جورج) العزيز اللطيف ؟ »

ـ « اتصل بى .. فقط قال كلامًا عامًا عن أنه من الخير لى ألا أحارب وحيد القرن .. لم يذكر الطفلة بحرف .. أعتقد أنه توقع أن يكون الهاتف مراقبًا .. »

ـ « ومتى ينتهى هذا الوضع ؟ أعنى متى يصدقون أنك ستصمت ؟ »

- « لا أعرف .. لكنى لن أجازف بشىء .. »

ثم تمسك بقميصى فى نوع من الهستيريا وهتف :

- « أنت ستتكلم ! سوف يقتلون صغيرتى ! »

انتزعت يده وقلت وأنا أنهض :

- « أنا تكلمت بالفعل .. هم يعرفون هذا .. لو كان هناك واحد يلمسوا منه فهو أنا .. لكنى لن أنكر حرفًا عن ابنتك .. لن أتحمل مسئولية كهذه .. »

كان هذا وضعًا لا يطاق .. لا يوجد موعد محدد يقررون فيه أنه نفذ أوامرهم أو لم ينفذها .. عندما تختطف شخصًا تطلب فدية أو شيئًا آخر .. هكذا يتحول الأمر إلى (سلم وتسلم) .. أما الوضع هنا فهلامى بشكل لا يطاق ..

هكذا غادرت داره وأنا غارق فى أفكار سود .. سوف أمر على (برنادت) لأطلب منها ألا تتواجد أبدًا بشكل منفرد .. لا بد من أن تظل فى الزحام قدر الإمكان ..

إنهم يريدون الصمت ..

★ ★ ★

بعد منتصف الليل استيقظت ..

قلت لنفسى إن هذا على الأرجح بسبب توترى بصدد ما حدث فى تلك الليلة .. لقد ضبطت ساعتى الداخلية على موعد التسلل ..

ثم أدركت أن السبب هو تلك الفكرة التى راحت تدق على أطراف أعصابى بإلحاح ..

« تجلس فى فراشها شاخصة البصر إلى الأمام .. فى عينيها تلك النظرة التى تراها مرارًا .. نظرة جهاز الكمبيوتر ــ لو كان شىء كهذا ممكنًا ــ الذى فقد قرصه الصلب .. إنها واعية لكن لا نفع لوعيها هذا ولا تعرف ما يجب أن تصنعه به .. »

« هذا التدهور بدأ منذ عامين .. سنها لا تفسر شيئًا كهذا .. »

« لو كنت تبحث عن لغز فأنت تقف أمام واحد .. »

« إن القذارة الشخصية جزء لا يتجزأ من العرف الذى نتكلم عنه .. دعك من أنها لا تأكل لو لم يطعمها أحد .. باختصار هى تحولت إلى طفل رضيع .. »

« اعملوا على أن يتم تنظيفها وأن تستبدل ثيابها .. فإن لم نستطع تخفيف عذابها فلنحفظ عليها كرامتها على الأقل .. »

« هذا مرض قاتل يصيب المخ .. أعراضه الهلوسة والنسيان وتغيرات الشخصية والحركة غير الثابتة كالسكارى .. يظهر فى سن الخمسين عادة »

ما معنى هذا ؟ المرأة كانت تعيش قرب المزرعة .. لا بد أنها تعاملت مع لحومها .. هل هذا ممكن ؟ هل (ياكوب كروتسفلت) هو الإجابة عن هذا اللغز ؟

لو كان هذا فالأمر جد خطير .. عته الأبقار انتقل إلى البشر فعلاً .. وهذه المرأة دليل على ذلك .. أما إثبات ذلك فلا يعلم كيفيته إلا الله .. لقد تحللت جثتها فى التراب الآن وصار إثبات الأمر مستحيلاً ..

داء (ياكوب كروتسفلت) فى (أنجلواندييرى) ! أية بشرى هى ! يكفى أن أوجد فى أى مكان كى تتجمع كل أمراض الأرض فيه ..

لكنى لن أخبر أحدًا بشكوكى إلى أن أعرف كيف أبرهن عنها ..

★ ★ ★

كنت أتوقع النتائج .

لقد أسفر عمل اللجنة التى تم تشكيلها على عجل بالتنسيق مع وزارة الزراعة الكاميرونية عن لا شىء .. كان من ضمن مرافقى اللجنة (شيلبى) و(بارتلبيه) .. وقد طلبوا (ألكسندرييف) فاعتذر متعللاً بمرضه الشديد ..

طبعًا لم يدعنى أحد لأى شىء .. وهو شرف لم أطالب به على كل حال لأننى توقعت أن يكون رجال المزرعة قد أخفوا كل شىء بدقة تامة .. إن الأخطاء يمكن دفنها دائمًا ..

إن رجال الشرطة يقولون إنهم لم يجدوا بين عمال المزرعة من جرح فى رأسه .. ربما هم كذابون لكنى أرجح كذلك أن يكونوا قد أبعدوا العمال الذين آذيتهم ..

لكن هذا لم يمنعنى من أن أحوم حول أسوار المزرعة وأراقب ما يحدث بالداخل ..

فى الواقع كنت أراقب ما يدور بالخارج لأن الأسوار عالية نوعًا لا تسمح بشىء ..

فجأة رأيته ..

كنت أتوقع شيئًا كهذا لكن ليس إلى هذه الدرجة من الحظ الحسن .. هذا الرجل الذى يمشى جوار سور المزرعة .. يدنو منه ثم ينادى أحدهم من الداخل ليتبادل معه حديثًا عبر السياج .. ينفجر ضحكًا .. يبتعد فى مرح وهو يصفر ..

رجل له شارب أبيض رفيع وقد ضمد رأسه ..

لا توجد احتمالات كثيرة ..

لا بد أنه احتاج لوقت طويل كى يشفى من الارتجاج الذى سببته له بالمكواة .. لكنه يبدو بحال طيبة ..

لم أفكر مرتين ووجدت نفسى أمشى وراءه بمسافة مأمونة ..

إنه يهبط المنحدر .. يمشى عبر الطريق الترابى بخطوات خفيفة . حتى أنا الأصبى منه رحت ألهث .. لكنى لم أتوقف ..

هذا هو السوق .. إنه يمشى فيه بنشاط شاقًا طريقه وسط السلال والفاكهة المعلقة والطيور وثغاء الماعز ..

يشق طريقه بين العربات والوطنيين المتشاجرين .. يشق طريقه بين الكلاب الضالة والصبية الذين يلهون في التراب ..

وأنا أتبعه .. لم أتوقف عن ملاحقته .. برغم أن منظري يبدو غريبًا وسط هذا السوق ..

إنه يدخل زقاقًا جانبيًا ضيقًا .. أتجه إلى فتحة الزقاق وأنتظر لحظة ثم أدخل وراءه ..

أراه يقف عند مدخل منزل صغير تقف أمامه سيارة نصف نقل .. يدلف إلى الداخل ..

أعرف أنها حماقة .. لكن من قال إنني لست أحمق ؟ بشكل ما كنت أعرف أن أحدًا لن يساعدني .. ما حك جلدك مثل ظفرك .. لا بد من أن أعرف بنفسي ..

تسللت إلى الشارع الضيق القذر . ألقيت نظرة على صندوق السيارة فوجدت (كوريك) لا بأس بحجمه أبدًا .. حملته في يدي واجتزت الباب المفتوح إلى مدخل البناية الرطب كريه الرائحة ..

كان الرجل يقف وقد دفن جسده في فتحة في الجدار وظهره لي .. إنه يلبي نداء الطبيعة كما هو واضح .. ودورة مياههم موجودة في مدخل هذه البناية ..

لم أعتد فى حياتى على أنـاس كثيرين يمارسـون نشـاطًا فسيولوجيًا .. أفضل أن أنتظر .. لكن رؤية الرجـل أعـادت لى كل تفاصيل تلك الليلة ..

ـ « (ميمادو) ؟ »

قالها دون أن ينظـر للـوراء .. فقلت فى سـرى : لسوف تتمنى لو كنت (ميمادو) هذا ..

(برنادت) خائفة .. شعرها الأشقر الأنيق يتدلى علـى ساعد أحدهم ..

رفعت الكوريك فى يدى ..

(برنادت) دامعة العينين ..

هويت بالكوريك على مؤخرة رأسه ..

(برنادت) تصرخ ..

انهال الكوريك على الرأس فـى موضـع ليس بعيدًا عن ضربة المكواة الأولى ..

تهاوى على الأرض .. ولم يصرخ ..

وقفت ألهث كالنمور التى انتهت من الافتراس .. ثم تركته على الأرض ولم أحاول معرفة إذا كان قد مات أم لا .. كنت فى حالة عصبية غير مستقرة وبالفعل كنت قادرًا على القتل ..

لم يكن هناك إلا باب واحد موارب .. لقد فتحه قبل أن يقرر إفراغ مثانته أولاً .. فتحت الباب بحذر ودلفت إلى الداخل ..

كان المكان أقرب إلى مخزن قذر ضيق .. هناك أجولة عديدة لا أعرف ما فيها .. هناك شق بين ألواح الخشب فى السقف يسمح بدخول نور الشمس .. رحت أفتش بين الموجودات فى حذر .. لو كان أحدهم بالداخل فسوف ..

وهنا التقت عينانا ..

كان جالسًا كالقرد على جوال وهو يلتهم شيئًا ملفوفًا فى جريدة .. ذلك الرجل الثالث الذى ضربنى من الخلف ليلتها .. نهض منتفخ الشدقين بالطعام وقد باغتته المفاجأة ، أما أنا فكنت متوترًا كالفهد .. وسرعان ما طوحت بالكوريك فى وجهه فسقط أرضًا ..

فى هذه اللحظة كانت جرعة الأدرينالين قد انتهت من دمى .. وعندما ينتهى الأدرينالين يورثك وهنًا لا قبل لك به .. ساقاى لم تعودا قادرتين على حملى مع تلك الرجفة .. تلك الرجفة .. لقد بلغ جهازى العصبى أعلى أداء له ثم انهار ..

سقطت على الأرض .. رفعت رأسى فوجدت أننى أحدق فى العينين الواسعتين المذعورتين لطفلة صغيرة مقيدة اليدين إلى الخلف .. طفلة مكممة .. طفلة هى (كاتيا) ابنة (الكسندرييف) .. كانت تعرفنى لكن لا بد أن وجهى تغير كثيرًا جدًا بسبب الطلقة السابقة وبسبب التوتر أيضًا ..

سمعت صوت الأنين من خلفى فزحفت حتى بلغت مصدره ..

كان راقدًا على الأرض يغطى وجهه ويئن ..

دنوت منه وأمسكت بتلابيبه .. راح يغمغم بشىء ما .. ثم ألحقها بـ (سيلفو بليه) .. مرارًا .. إذن هذا الأحمق يتكلم الفرنسية بدوره .. حسبت ذا الشارب الأبيض هو المترجم الوحيد ..

قلت له بصوت كالفحيح وأنا أهزه هزًا :

ـ « تكلم أيها الوغد .. أين ثالثكم ؟ »

لم يقل شيئًا . فقط راح ينشج كالأطفال ..

هززته بعنف أكثر :

ـ « لا أحد يعرف أننى هنا .. سوف تموت الآن ولن يقبض على قاتلك أبدًا ! »

كانت لقمة الطعام ما زالت فى فمه لكنه استطاع أن يتكلم .. الطفلة تبكى بدورها لأنى بدوت لها وحشًا قادمًا من الجحيم ولم تتوقع أنى منقذها بالذات .. ولو كنت منقذها فلماذا لم أفك قيودها ؟

قال :

ـ « لقد مات وقمنا بدفنه .. »

هذا جميل .. كان دفاعًا عن النفس وإن كنت غير فخور به .. وماذا عن الأخ الذى ضربته وهو يقضى حاجته ؟ (علاء عبد العظيم) قد استعاد سيرته السابقة فى قتل الخصوم كما يبدو ..

ـ « وأين فعلتم هذا ؟ »

- « هنا ! مع جثة الصبى ! »

- « صبى ؟ أى صبى ؟ »

قال بنفس اللهجة :

- « صبى .. »

ثم أغمض عينيه .. أعتقد أنه فقد الوعى لا أكثر .. مددت يدى أتحسس نبض عنقه فوجدته حيًا لا يرزق ..

بحثت عن مدية ففككت الحبال التى تقيد الطفلة .. وقلت لها :

- « سنعود إلى بابا حالاً .. ولكن أريد أن أرى شيئًا .. »

قالت كلامًا بالروسية لم أفهمه لكنه يدل على الرعب الشديد .. لم أعلق ورحت أمشى بين الأجولة العديدة .. لن يكون هذا سهلاً .. لا بد من آخرين ..

جمعت بقايا الحبل الذى فككته عن الطفلة واتجهت إلى ضحيتى فاقدة الوعى ..

حان الوقت لأثق قليلاً فى الشرطة المحلية ..

★ ★ ★

١٠ - فـرود نـدى ..

أخرجوا الجثتيـن عند العصر من بقعة تكومت فوقها الأجولة .. هذا متوقع طبعًا .. جثة مهشمة الرأس أعرفها جيدًا لأننى المسئول عنها ، وجثة صبى مراهق تحللت تقريبًا .. لكن من الواضح أنها قتلت بالفئوس ..

قلت محاولاً تذكر الاسم :

- « هذا الصبى يدعى .. .. »

قال رجل الشرطة الأسود وهو يجلس القرفصاء ليتفحص الثياب الممزقة المختلطة بالطين :

- « لا داعى للتفكير الكثير .. هذا (مولانجا) ولد تلك المرأة السقيمة (دوجمارا) .. لقد اختفى منذ أشهر .. أمه ماتت بعده بفترة .. »

يجب أن أقول هنا إن الرجلين اللذين ضربتهما أصيبا بارتجاج فى المخ لكنهما حيان لحسن الحظ .. إنهما فى المستشفى ولا يستطيع أحد انتزاع معلومات منهما ..

قلت لرجل الشرطة :

- « الأمر واضح .. هؤلاء يعملون فى المزرعة .. إدارة المزرعة هى من كلفهم بهذا الاستعراض الإجرامى .. »

قال وهو ينهض عن الأرض وينفض كفيه :

- « ليس بالضرورة .. هناك نحو خمسمائة عامل فى المزرعة ولا يمكنك أن تضمن أنهم جميعًا مواطنون صالحون .. ربما تصرف هؤلاء على مسئوليتهم الخاصة .. دعك من أنك لن تجد اسمهم فى قوائم العمال .. »

- « لا تقل لى إن الأمر عسير .. عندك شهادتى على أن ما أرادوه كان الكاميرا الخاصة بى .. وعندك شهادة د. (ألكسندرييف) على أن سلامة ابنته كانت مرتهنة بالصمت .. لا مصلحة لهؤلاء في هذه الطلبات السفسطائية .. صاحب المصلحة هو صاحب المزرعة .. هؤلاء لعبوا دور مخلب القط .. »

قال فى غيظ :

- « وما مصلحة صاحب المزرعة ؟ »

- « يا سلام ؟ لا يريد أن يعرف الطب أن وباء جنون الأبقار تفشى فى مزرعته .. »

- « ومن قال هذا ؟ لجنة البيطريين لم تجد شيئًا .. لن تستطيع إثبات شىء .. سوف يتلقى هؤلاء عقابهم وينتهى الأمر .. »

نظرت له فى حيرة فأردف دون أن ينظر لي :

- « (فرود ندى) رجل قوى النفوذ .. وإننى لأنصحك بأن تنسى الموضوع .. »

سمعت هذا التحذير كثيرًا .. طبعًا الوضع معروف .. الطبيب الشاب معدوم النفوذ فى مواجهة (تايكون) مخيف .. لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا لانتصرت ولو كان واقعًا لسحقتى .. بما أننا نتحدث عن الواقع هنا ، وبما أنه على الأرجح اشترى رجال الشرطة أو أثار رعبهم فلا أمل لى ..

لكن من يستطيع منع الذبابة من مضايقته ؟ من يستطيع منع البعوضة من لدغه ؟

* * *

كنت جالسًا فى المقهى الذى يبعد عشرين مترًا .. رأيته إذ توقفت سيارته أمام بوابة المزرعة الكبيرة .. يهرع نحوه بعض الرجال ومن بينهم (جورج) .. كلهم لهفة لسماع تعليماته التى يصدرها من النافذة الجانبية للسيارة الفاخرة فى (ألاطة) مشفوعة بدخان السيجار .. ..

كما فهمت هذه المزرعة هى تاج ممتلكاته .. إنه يملك الكثير لكنه يفخر بهذه المزرعة فعلاً ..

لا أستطيع ان أرى كل تفاصيله .. لكنه كما يبدو لى منتفخ كالطاووس .. متأنق إلى حد الأنوثة .. أصلع .. بدين .. يشبه (جورج) نوعًا لكن مع فارق هائل فى المستوى الطبقى .. لا بد أن خمسة خواتم على الأقل تزين كل يد ..

جواره امرأة تضع على رأسها تلك العمامة الإفريقية لتبدو كأصيص زرع .. ألوان ثيابها زاهية تصيبك بالإسهال .. لا بد أنها تمثل قمة الفتنة بالنسبة لهم ..

كرهته حتى وأنا أراه من هذه المسافة ..

(فرود ندى) .. الذى قتل رجاله (مولانجا) وحرموه مستقبلاً يجنى فيه ثمرة شبابه الغض .. وبشكل غير مباشر

قتلوا أمـه .. (فرود نـدى) الـذى أرسل رجالـه يقتحمون دارى ويروعون زوجتـى .. (فـرود نـدى) الـذى أرسـل رجاله يختطفون ابنة (ألكسندرييف) ..

والسبب ؟

حتى لا يقل المال فى خزينة الغول الأعظم .. الغول الذى يحرس قدور المال ..

فى اللحظـة التاليـة طـارت تلـك البطيخـة عـبر النـافذة المفتوحة لتستقر فى وجهه بعد ما تهشـمت طبعًا .. وعلـى الفور انهمر سيل من البطيخ والطماطم على العربة .. نـوع خاص جدًا من الرجم ..

هناك أطفـال يحمل كل منهم بطيخـة أو بعض الطمـاطم الفاسدة ويجرى نحو العربة ليتخفف من حمله .. ثم يركض وهو يضحك ..

الرجال الشرسون يصرخون ويحـاولون منـع هذا السيل من قاذفى الطماطم .. لكن الصبية يفرون وهـم يتصـايحون ويضحكون .. السيارة تحولـت إلـى صلصـة بينمـا سـائقها يسرع بها ليعبر البوابة فارًا من هذا السيل .. يجب أن يبدل السيد ثيابه ويغتسل داخل المزرعة ..

وفى لحظات لم يعد أمام البوابة صبى واحد .. فقط مجموعة من الرجال الغاضبين الملوثين بالصلصة ..

دفنت وجهى فى كوب العصير الذى كان أمامى ورحت أضحك .. أضحك حتى تقطعت أنفاسى ..

كما لاحظ (شابلن) من قبل : عندما يتعثر رجل فقير مريض فإنك تشعر بالشفقة .. أما حينما يتعثر متغطرس متأنق فإنك تضحك حتى تختنق .. والسبب أن أكثر البشر فقراء .. وأكثرهم يحبون أن يروا الأثرياء يفقدون كرامتهم .. ملحوظة قاسية لكنها دقيقة .. كنت أضحك ليس لأن (فرود ندى) ثرى وإنما لأنه شرير ..

بعد عشر دقائق جاء (بودرجا) ممرض (سافارى) ومترجمها ليجلس أمامى .. ونظر لى بعينين متسائلتين فمددت يدى فى جيبى وناولته بعض المال ..

قال وهو يعد الأوراق :

- « جميل دكتور .. هذا كاف .. لقد دفعت ثمن البطيخ والطماطم .. الآن سأوزع المال على الصبية »

- « لتكن سخيًا .. لا تبق شيئًا لنفسك .. »

وانصرف (بودرجا) .. كان انتقامًا صبيانيًا .. مجرد لعبة أطفال خائبة لكنها بعثت فى روحى انتعاشًا غريبًا .. لم تدمع عيناى من الضحك منذ زمن ..

لا يمكن ملاحقة الأطفال أو القبض عليهم .. هذا هو مكمن القوة فى هذه الخطة .. فى الريف عندنا يقولون ما معناه : لو أردت أن يهجر أحدهم البلدة فلتسلط عليه الصبية .. لا بد أن الرجل يوشك على الجنون وهو يحاول فهم سبب هذا الاعتداء عليه ..

لكنى ما زلت أصبو إلى انتقام جدير بالكبار ..

★ ★ ★

دق جرس الباب وأنا أتناول العشاء مع (برنادت) فى المطبخ ..

نهضت للرد برد فعل غريزى لكنها جذبتنى .. وبنظرة ذات معنى قالت :

ـ « احترس ! »

معها حق ..

اتجهت لأنتقـى أكبر سكين فـى المطبـخ ثم اتجهت إلـى الباب وأصغيت قليلاً قبل أن أقول :

ـ « من ؟ »

ـ « أنا (بوريس ألكسندرييف) يا دكتور »

هكـذا فتحـت البـاب بحـذر .. حتـى لـو كنـت أخشـى (ألكسندرييف) لحظة فقد صار هذا ماضيًا بعد ما أعدت له ابنته سليمة ..

وجدته يقف على المدخل وجواره شاب أفريقى نحيل لـه وجه كالكمثرى .. قال لي :

ـ « معـذرة على قدومى مـن دون مـوعـد .. هذا هو د. (بول أهيدجو) من مزرعة (سيرينتيه) .. »

آه ! هذا واحد من الشياطين إذن ..

سمحت للضيفين أن يريا السكين ثم دسستها فى حزامـى كالقراصنة ..

سمحت لهما بـالدخول واتجهت للمطبـخ لأحضـر كيسـين من العصير ، ثم عدت لأقدم لكل منهمـا واحدًا .. النظـرة

على وجـه (أهيدجو) تقول إنـه جاء ليعترف .. بمـاذا ؟ لا أعرف ..

قلت بلا كياسة :

ـ « إذن هـذا واحـد مـن (اليهـوذات) الذين أسلموك لـ (فرود ندى) .. »

صدمتهما صراحتى .. الحقيقة أن روحى كانت قد بلغت الحلقوم من الموضوع كلـه .. صرت أراه مبتذلاً إلـى حد لا يوصف .. لـولا بقيـة مـن تهذيـب لأحضـرت المكنسـة وطردتهما معًا مشيعين باللعنات والركلات ..

قال (أهيدجو) بصوت مبحوح :

ـ « سيدى .. (فرود ندى) وغد .. أنا موافق على هذا .. لكننا لم نسلم أحدًا .. هذا هو ما حكيته لد. (ألكسندرييف) .. القصة تسربت لكن ليس عن طريقنا .. »

ظللت صامتًا أصغى لما يقولان .. جاءت (برنادت) من الداخل ووقفت تستمع .. هذا يضايقنى فيها .. فأنـا شـرقى حـار الدمـاء أفضـل أن تتـم هـذه المواضيـع بيـن الرجـال .. لكنها لا تقبل ذلك .. إنها طرف فى أية محادثة تتم فى الدار هنا .. هذه من النقاط التى تسبب شجارنا دائمًا ..

واصل (أميدجو) الكلام :

ـ « أنا كاميرونى .. لا يمكن أن تدعـى أنـك تحب بلدى أكثر مما أحبه أنا .. »

ـ « بدأت أعتقد ذلك .. »

ـ « القصة هى أن المـرض ظهر فـى الماشـية بـالفعل . وقد حسبناه فى البداية (عته الأبقـار إسفنجى الشـكل) .. كان هذا مرعبًا وكان علينا أن نتحرك بسرعة حتى لو فقدنـا وظائفنا جميعًا .. إن معنى هذا انهيار اقتصـاد البلاد .. لو صح هذا لكان علينا إبلاغ السلطات وتدمير المزرعة بالكامل .. هـذه كارثة لكنها أقل وبالاً من امتداد الوباء لكل أبقار البلاد .. لكننـا قمنا بتشريح الأبقار الميتة .. أرسلنا أنسجة من مخهـا إلـى (ياوندى) .. والنتيجة هى أنه لا يوجد شىء ! »

نظرت له ولـ (بوريس) .. ما معنى هذا ؟

ـ « لم تجدوا البريونات ؟ »

قال الطبيب الشاب :

ـ « نعم .. لا يوجد بريون واحـد .. هكـذا عرفنـا أن القصة لا تتعلق بهذا الوباء وإنما لها تفسير آخر .. هكذا واصلنا البحث وتركنا لهم حرية إعدام الأبقار ودفنها .. كان

قرارنا هو : ما دام هذا ليس جنون الأبقار فمن الحكمة أن نلتزم الصمت إلى أن نعرف السبب .. من الظلم أن تغلق الحكومة المزرعة لتفشى جنون الأبقار بينما هذا ليس جنون الأبقار ! »

نظرت لـ (برنادت) فى حيرة فوجدتها قد فغرت فاها بالغباء ذاته ..

قلت :

ـ « إذن لماذا تصرفوا بهذا العنف ؟ »

ـ « بالنسبة لـ (فرود ندى) لم يكن يهتم بالتفاصيل العلمية .. هذه مزرعته التى توشك على أن تغلق .. لهذا أصدر تعليماته للوحوش التى تعمل معه .. لا أريد أى خبر عن الموضوع .. أعتقد أن ذلك الصبى الذى وجدتم جثته كان يعرف أكثر من اللازم .. »

قلت وأنا أثنى ساقى تحتى :

ـ « حسن .. أنتم أبرياء .. لكن ما الشىء الموجود هنا بالله عليك ؟ »

قال (ألكسندريبف) :

ـ « سوف نعرفـه .. سـوف نرسـل جثـة بقـرة إلـى (يلوندى) .. ربما إلى الولايات المتحدة لو اقتضى الأمر .. »

ـ « وذلك الذى قتل وهدد ؟ »

قال الطبيب الكاميروني :

ـ « أنا مستعد للشهادة فى أى شىء يطلب منى بشرط أن يكون قد وقع أمامى .. »

ثم نظر فى ساعته وقال إنـه ينبغى الانصراف حتى لا يبقينا ساهرين أكثر من اللازم ..

على الباب استدار (ألكسندرييف) لى وقال من دون أن يسمعه الآخر :

ـ « إنه صادق يتكلم من القلب .. فافتح له قلبك »

قلت فى غيظ :

ـ « ولو كان يتكلم من زائدته الدودية .. ولو فتحت له كبدى لا قلبى فما الفارق ؟ أى شىء ستضيفه هذه المعلومات ؟ »

★ ★ ★

١١ ـ جورج أكيدى أكو ..

قال (شيلبى) وهو يلوح بالأوراق فى وجهى :

ـ « هذا البحث مهلهل ! لقد قرأته فوجدت أنه هراء Bullshit .. أنت بارع فقط فى التنسيق بالكمبيوتر .. »

نظرت له فى غيظ وقلت فى سرى ما معناه (إنت لسه فاكر ؟) .. كنت أعتقد أننى خدعته وانتهى الأمر ، لكنه لا ينخدع بسهولة كما تمنيت .. كنت قد بدأت أحبه وأفقد احترامى له .. لكنى الآن أمقته بجنون و .. أحترمه ..

قلت له :

ـ « معذرة .. إنها تلك الظروف .. ليكن .. سأحاول كتابة الموضوع من جديد .. »

لكنى لم أنتح بك لهذا الغرض .. لقد طلبت أن أنفرد بك فى مكتبك لأحكى لك تفاصيل هذه القصة وما قاله الطبيب الكاميرونى ..

راح يصغى لى وهو لا يكف عن نفث دخان السيجار ..

فى النهاية قال :

ـ « أنت لا تجد أرضية تدفعك للشك فى كلام هذا الطبيب ؟ »

ـ « فى الواقع لا .. »

قال شاردًا :

ـ « فى الواقع لم أعد واثقًا من شىء فى هذه القضية .. لقد قمنا فى ذلك اليوم بجولة دقيقة فى المزرعة .. لم يكن هناك شىء على الإطلاق .. كل الأبقار بحال جيدة .. كل شىء يعمل بدقة مريبة .. أدق من اللازم إذا أردت رأيى .. وهكذا أدركت أن القضية خاسرة : لقد أزالوا كل شىء قبل قدومنا .. لقد كانت قوة زيارتك تكمن فى كونها مفاجئة .. لم يستعد أحد لمواجهة ذلك الطبيب الشاب الغرير الذى يمكن خداعه .. »

ابتسمت وقد تذكرت زيارات المسئولين فى مصر .. تلك التى يتم الاستعداد قبلها بشهر .. الطرق ترصف وأكوام القمامة تزال .. وحينما يصل المسئول يبدو كل شىء دقيقًا منظمًا أكثر من اللازم .. لكنه لا يندهش .. أو لعله يدرك هو الآخر طبائع الأمور .. إنه يفتش ليرى إن كان مرءوسيه قد أعدوا العدة لاستقباله كما يجب أم لا ...

قلت له :

ـ « أعتقد أن علينا أن ننسى هذه القصة .. »

قال في غيظ وهو يدفن طرف السيجار المشتعل في المطفأة :

ـ « أنت تفعل .. (آرثر شيلبي) لا يفعل .. لا تنس أن تلك المرأة أم الصبي ماتت بمرض شبيه جدًا بـ (ياكوب كروتسفلت) .. »

ـ « وهل هذا يدل على شيء ؟ »

ـ « يدل .. لو كانت تأخذ حاجتها من اللحم من تلك المزرعة .. على الأرجح سيكون هناك منفذ استثنائي للبيع المباشر للجماهير .. الناس تثق بهذه المنافذ وتعتبر ما تبيعه أكثر طزاجة .. »

كما يحدث عندنا في مصر في مزارع الدواجن .. لا بد من منفذ لبيع البيض مباشرة للناس .. حككت شعري مفكرًا ثم قلت :

ـ « ولماذا تكون هي الحالة الوحيدة ؟ كنا سنرى سيلاً من الحالات .. »

ـ « لا بد من شرارة أولى دائمًا .. »

ثم بدا كالحالم وهو ينظر إلى الأفق عبر النافذة الزجاجية في مكتبه .. وشعرت كأنه يلقى خطبة المفصلة الشهيرة :

- « لنكن واضحين .. ما زال المرض غامضًا .. ما زلنا نرتاب فيما إذا كان البريون نتيجة أم سببًا .. ما زلنا نجهل ما إذا كان ينتقل فعلاً من الماشية للبشر .. لكننا فقط نعرف أنه حيث تواجدت أبقار فى أنسجتها بريونات تواجد بشر فى أمخاخهم بريونات .. »

ذكرت له مثال الأحذية التى ازداد قياسها أثناء الحرب ، وكيف أن هذا ارتبط بوفاة الرجال .. لم يكن قد سمع هذا المثال من قبل لذا انفجر ضحكًا ثم قال :

- « أوافقك على أن وسائل الإحصاء العتيقة تكرر هذا الخطأ .. معامل الارتباط يتصرف بغباء أحيانًا .. مثلاً العلاقة بين حجم الأنف وقطر الوريد البوابى .. لكن علم الإحصاء الحديث قد تخلص من هذه الأخطاء تمامًا .. »

ثم قال بلهجة ذات معنى :

- « لا تنس أننا نتحدث عن مرض يصيب واحدًا من كل مليون فرد ! »

صفرت بفمى .. لم أتوقع هذا الرقم التافه .. فقال باسمًا :

ـ « مع تعداد البشرية يصير لهذا الرقم معنى .. تصور سبعين شخصًا فى وطنك يعانون هذا الداء .. الداء الذى لم يشف منه أحد قط والذى يقتل خلال عام .. دعك من أننا نخشى أن تصير النسبة أعلى من هذا .. »

ثم جمع أوراقى وقال :

ـ « أريد منك بحثًا أدق خلال ثلاثة أيام .. أحسب هذا ممكنًا !»

★ ★ ★

كنت أمر فى سيارة (سافارى) قرب المزرعة إياها .. من الغريب أننى صرت أتعمد المرور عليها هذه الأيام كأنه حب مفقود .. . والأغرب أننى لم أكن ألاحظها تقريبًا فى الماضى ..

رأيت زحامًا حول البوابة الجانبية .. فهمست للسائق أن يهدئ السير قليلاً ..

كانت هناك عربة شرطة كاميرونية بشكلها المميز الذى يذكرك بالدوريات فى الأفلام الأمريكية .. إن ثياب الشرطة هنا ومركباتها تذكرك بالشرطة الأمريكية فعلاً .. هذا غريب . لكن الأغرب هو دولة (ليبيريا) التى استنسخت

أمريكـا بـالضبط فـى كـل شـىء .. ثيـاب رجـال الشــرطة .. تنسيق الشوارع .. كل شىء .. حتى علمهم كان هو العلم الأمريكى بالذات مع استبدال الأزرق بالأحمر .. السـبب هـو أن ليبيريا أنشأها العبيد الذين أعتقوا فـى الولايـات المتحدة وقرروا إنشـاء دولـة فـى إفريقيـا تشبه المجتمـع الأمريكـى حرفيًا .. طبعًا كـان هـذا فـى العصـر الذهبـى .. عصـر الاستقلال ..

السيارة تقف أمام المدخل .. رجال شرطة يحيطون برجل ضخم يقاوم ..

حينمـا رأيت صلعتـه وثيابـه أدركت أنــه (جـورج) .. (جورج أكيدى آكو) الذى يدير كل هـذه الفوضـى .. يقـف وسطهم كأنه المشهد الأخير من فيلم (كينـج كونـج) .. فقط يجب ان تكون فى قبضته الممثلة (فاى راى) فاقدة الوعى ..

إنه يلكـم رجـل شـرطة .. جميـل .. تمنيت أن يتهـور .. كـانت النتيجـة هـى أن رجلـى شـرطة انهـالا عليـه ضربًـا ولكمًا .. سقط على الأرض لكنهمـا واصلا ركلـه ثـم رفعـاه وقد تحول وجهه إلـى عجين وألقيا بـه فـى المقعد الخلفـى للسيارة ..

هناك زحام من العمال لكنهم يقفون بلا اكتراث .. كأنهم يراقبون مسلسلاً تلفزيونيًا مثيرًا .. (الكل يعرف جورج ويحبه) .. قالها لى رجل الشرطة من قبل .. الآن يبدو صدق كلامه واضحًا .. لا أحد يهتم .. فلو كانوا يعتقلون بقرة لانفعل الناس أكثر ..

قلت فى نشوة وأنا أرمق المشهد :

ـ « جميل .. لقد نال الظالم عقابه ! »

من الطبيعى أن الرجلين اللذين كانا فى المستشفى قد شفيا وتكلما .. من الطبيعى أنهما سيخبران الشرطة بشخصية من أرسلهما ..

قال السائق الكاميرونى (بابا) وهو لا ينظر إلى المشهد أصلاً :

ـ « (جورج) ؟ إنه محبوب هنا ! »

أصابنى الغيظ فقلت فى عصبية :

ـ « هذا واضح من حماس الناس وبكائهم .. »

قال وهو يلوك لفافة تبغه :

- « لا تتوقع أن يعرض أحدهم نفسه للخطر .. إن الشرطة هنا شرسة .. إنهم يبدءون بتحطيم أسنانك قبل أن يسألوك عما تريده .. »

ثم أضاف والسيارة تبتعد عن المشهد الدامي :

- « ثم إنهم لا يقبضون عليه لعقابه .. يقبضون عليه لتخفيف اللوم عن الكبار .. لا بد من الإطاحة ببعض الرءوس الصغيرة كى لا تحوم أسئلة حول الكبار .. سوف يدفع (جورج أكيدى آكو) ثمن كل أخطاء ملاك هذه المزرعة .. لو اتضح أن بقرة أصيبت بالإسهال عام ١٩٦٦ فلسوف يتهمون (جورج) المسكين .. ثم سرعان ما ينهال السد .. مائة عامل يشكو من سرقة مستحقاته .. مائة عاملة تشكو من تحرشه الجنسى بها .. لو تكلمت الأبقار لقدمت شكوى ضده .. »

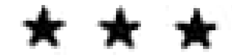
كنت أعرف هذا .. فقلت باسمًا :

- « عندنا فى مصر مثل يقول فى معناه : السكاكين تكثر على الثور عندما يسقط .. »

قال وهو يبصق من النافذة :

ــ « القصة هكذا دائمًا .. هذا شخص قد ذهب إلى الجحيم .. »

لا بد من إلقاء بعض الجثث للكلاب .. هذه هى القصة دائمًا فعلاً .. لكنى على الأقل مستريح لأنه استحق ما حدث له .. لا أستطيع بلوغ (فرود ندىء) .. على الأرجح لا أحد يستطيع ما عدا ملك الموت .. لكن (جورج) لم يكن قطًا وديعًا ..



١٣ - آرثر شيلبي ..

كنت منهمكاً في عنبر الأمراض العصبية مع د. (جابرييل) .. كانت هناك حالة غيبوبة حيرتنا كثيراً .. أقصد أنها حيرته .. وكنا نتبادل النقاش حولها عندما سمعت مكبر الصوت يناديني ..

أنا مطلوب لمكتب المدير ..

هززت رأسي واتجهت إلى الباب لأسمع ممرضة بلجيكية تسأل صاحبتها :

- « كم الساعة الآن ؟ »

التفت لها قائلاً بلا اكتراث :

- « السابعة مساء طبعًا .. »

كان واضحًا أنني لا أحمل ساعة وأعتقد أنهما حسبتاني أمزح مزاحًا سمجًا .. لكنهما لا تعرفان العلاقة بيني والمدير والساعة السابعة ..

اتجهت إلى مكتب المدير .. أعرف أن هناك كارثة ما على الأرجح لكنها لا تتعلق بهذه القصة .. أعتقد أنها انتهت أو كادت ..

هكذا حييت السكرتيرة واجتزت الباب إلى الداخل وأنا غاضب .. بالفعل أنا غاضب .. لو كانوا يشكون من مستوى عملى فلينتظروا حتى يقبل (ابن سينا) العمل عندهم بأجرى .. هذه هى الكلمة التى أقولها دومًا ويبدو أنها مقنعة ..

هنا فوجئت بمشهد مرعب ..

مشهد شنيع ..

إن (شيلبى) هنا ومعه (ألكسندرييف) وذلك الطبيب البيطرى الكاميرونى ـ هل كان اسمه (أميجو) ؟ ـ ورجل رابع لم أتعرفه ..

ما هو المخيف فى الموضوع ؟ المخيف أنهم يضحكون .. يضحكون ضحكة مشرقة جعلت الدم يتجمد فى عروقى .. المفترض أن يكونوا متجهمين .. إن سعادة هؤلاء القوم خبر سيئ فى حد ذاته ..

قال (بارتلبيه) وهو يرتج كما هى العادة :

ـ « تعال يا (علاء) .. لقد حضرت بداية المشكلة وصار من حقك أن تحضر نهايتها .. »

هكذا اتجهت متوجسًا فجلست .. وحييت (ألكسندرييف) بهزة رأس ..

قال (شيلبى) :

- « فى الحقيقة أنا لم أنم بعد محادثتنـا السـابقة .. قلت لـك إن (آرثر شيلبى) لا يقبل أنصاف الحلول .. لهذا أجريت أبحاثى .. عدت لمراجعى وأرسلت عدة رسائل بالبريد الإلكترونى إلى الوطن .. فى النهاية كونت نظرية لا بأس بها لكن كـان ينقصها الدليل .. والدليل جاء به د. (أهيدجو) .. هو الـذى اقتطع لى بعض الأعشاب من داخل المزرعة وأشرف علـى تحليلها فى مختبر قرب (ماروا) .. »

لم أفهم معنى هذا كله ..

قال (بارتلييه) :

- « سوف نسمع النظرية كاملة .. ولكن أرجو ألا تقاطعه .. »

ثم طلب السكرتيرة على جهاز الدكتافون وطلب منها ألا تسمح لأحد بالدخول ..

نهض (آرثر شيلبى) كأنه يلقى محاضرة .. يداه فـى صديرى بذلته وقد رفع نظارته لأعلى لتستقر فوق خصـلات شـعره الأشيب .. والسيجار فى فمه . (بارتلييه) لا يطيق الدخان لكن أحدًا لا يجرؤ على منع الأمريكى المتبختر من شىء ..

ذكرنى منظره بشخص آخر لكن أين ومن ؟

قال (شيلبى) :

ـ « كانت المشكلة هى أننا أمام حالة .. أ .. أعترف أن الدليل الوحيد على وجودها هى تلك الصور التى التقطها صديقنا المصرى .. لكننا فيما بعد سمعنا من د . (أهيدجو) أن هذا وباء وأن الأبقار المريضة كانت تعدم وتدفن أو تحرق .. حالة بقرة تتصرف كأنها سكرى .. تفقد ثبات مشيتها وتترنح وتغدو عصبية جدًا .. أكد التشريح الذى قام به الأطباء البيطريون أنه لا توجد بريونات فى مخ تلك الكائنات .. هكذا صار علينا أن نجد حلاً ..

« لو لم يقم ذلك المدعو (جورج) ومن معه بكل هذه العمليات المحمومة لإخفاء القصة لاستطعنا أن نفكر بعقل صاف .. لكن محاولاتهم المحمومة كانت تقول بلا شك إنهم يخفون سرًا عظيمًا .. لهذا لم نجد فرصة للتفكير ..

« الآن خطر لى أن أفكر بشىء من العقلانية .. كما فهمنا فهذا المرض يصيب الأبقار الحلوب .. والأسمدة التى تم استعمالها مؤخرًا عالية النتروجين والبوتاسيوم .. وهم يستعملونها بلا حذر وبإفراط عجيب .. »

(شيرلوك هولمز) ! بهذا ذكرني .. أدركته على الفور .. إنه يمثل الآن دور (هولمز) في نهايات قصصه عندما يقف في ثقة متبخترًا ، يعرض ما توصل إليه على البلهاء المذهولين (ومن بينهم نحن القراء) .. سوف يقول بعد دقيقة واحدة : « حفظ الله الملكة يا عزيزى واطسون »

يواصل (شيلبى) الكلام وهو يجتاز الغرفة جيئة وذهابًا :

- « هناك مرض يعرف باسم (نقص المغنسيوم) لو تشنج العشب Grass tetany يصيب المواشى الحلوب التى ترعى عشبًا قليل المغنسيوم .. والعشب قليل المغنسيوم قد ينجم عن استعمال أسمدة عالية البوتاسيوم أ والنتروجين .. هذا المرض قد يسبب الكثير من الخلط لدى الأطباء الذين يحسبونه (عته الأبقار إسفنجى الشكل) .. والبيطريون الذين يتوقعون هذا المرض يقيسون درجة حمضية التربة .. فإذا كانت أميل إلى الحموضة استعملوا للتربة نوعًا من الحجر الجيرى مع (الدولومايت) ..

« كانت هذه دومًا مشكلة فى وطنى .. فى (فرجينيا) .. بالذات فى شهر ديسمبر حينما يكون الكلأ صغير السن .. أنتم تجهلونها هنا لأنكم كنتم تفضلون استعمال الأساليب

الطبيعية .. لكن مع التقدم العلمى بدأت أمراض الحضارة تتسرب لكل شىء .. اليوم يصاب المواطن الأفريقى بارتفاع الضغط وسرطان القولون وهى أمراض الحضارة المرتبطة بوجبة الغذاء الغربية .. عندما كان يأكل طعامه المعتاد المليء بالألياف ومضادات التأكسد لم يكن يصاب بهذه الأمراض .. اليوم تمدين البائس وصار مثل الغربيين ! هذه هى العولمة كما يجب أن تكون ! أن يصاب المرء بسرطانات لم يكن يصاب بها فى الماضى .. الأبقار أيضًا تمدينت وتعلمت كيف تصاب بأمراض مراعى (فيرجينيا) .. أحيانًا تمرض فى الليل ثم يصحو المزارع صباحًا ليجدها ميتة .. »

ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال :

ـ « أثبت تحليل الكلأ أن به نسبة منخفضة جدًا من المغنسيوم .. نسبة عالية من البوتاسيوم والنتروجين .. سوف يثبت تشريح الأبقار أن ما قلته صحيح .. وهكذا يا سادة قد عرضت قضيتى ! »

وانحنى للجالسين فبدأ البعض يصفق .. والحقيقة أننى صفقت بدورى ..

كل هذا العناء .. ثم يتضح أن الأمر يتعلق بتغذية الأبقار !

ثم تذكرت شيئًا فقلت :

- « وتلك السيدة التى ماتت ؟ ألا توحى بداء (ياكوب كروتسفلت) ؟ ألا ترى هذا بنفسك ؟ أنت قلتها .. »

قال باسمًا :

- « هناك أمراض عصبية تفوق الحصر .. لعلها حالة (آلزايمر) لم نعتد وجودها هنا .. لا يوجد شىء واضح أو سهل فى الطب .. إن نقص المغنسيوم حقيقة ثابتة .. بينما ما أصيبت به المرأة غيب .. »

قال (بارتلبيه) ضاحكًا :

- « كان هناك تشخيص نستخدمه فى الماضى هو GOK .. ظللت حائرًا بصدد معنى هذه الحروف ثم عرفت أنها تعنى God only knows .. الله وحده يعلم ! »

قال (ألكسندرييف) :

ـ « ضـربة قوية هى لكبريائنـا المهنى أن يأتى التفسير من طبيب بشرى وليس بيطريًا .. لكن لنتذكر أننا لا نعرف كلا المرضين هنا . لا عتـه الأبقار ولا نقص المغنسيوم .. لعل هذا يعطيه نظرة شمولية ما .. وعلى كل حال قد كتبنـا مجمـع توصياتنـا لتقديمهـا لإدارة المزرعـة .. إن بعـض الدولومايت يمكن أن ينقذ الأبقار .. »

★ ★ ★

بعد أسبوع .. ..

قال لى (بارتلييه) وهو يفتح باب مكتبه :

ـ « لدينا زائر فوق العادة .. رجل عظيم الشأن هنـا .. أصر على أن يقابلك .. مسيو (فرود ندى) ! »

وقبل أن أستوعب الموقف وجدت نفسى علـى بعد متر من وحيد القرن .. كـان بشعًا أكثر ممـا تصورتـه . متأنقًا بالطريقة التى أكرهها بالضبط .. عطر فواح خانق دهنـى .. معتدًا بنفسه حتى ليلذ لـى تخيلـه عاريًا فـى قبضـة زبانيـة

جهنم .. كل ما أكرهه فى العالم قد تمت تعبئتـه فـى بذلـة !
حمدًا لله ! حمدًا لله !

كان يمد يده وأسنانه تلمع فى وجهه الأسود وهو يقول بأناقة :

ـ « دكتور (عبد العظيم) .. سمعت عن الدور المشرف الذى لعبته فى إنقاذ مزرعتى وقد جئت لأشكرك .. »

نظرت للمدير لائمًا فنظر لى نظرة من طراز (كف ـ عن ـ الفضائح) .. ثم قال :

ـ « سأترككما معًا ليزول أى سوء فهم بينكما .. »

وغادر المكتب تاركًا إياى جالسًا مع الغول ..

قال (فرود ندى) باسمًا :

ـ « من العسير على من كان مثلى أن يتنـازل عـن كبريائـه ، لكنـى جئت أعتذر عن أى سوء فهم قد حـدث بيننا .. إن (جورج) ذلك الوغد الذى منحته ثقتى قد قرر

أن يتصرف على مسئوليته الخاصة .. وقد سبب أذى بالغًا لسمعتى كأشرف وأنظف رجل أعمال فى الكاميرون كلها .. لكنى آمل أن تكون قد فهمت .. لم أرسل أحدًا لترويع أحد أو خطف أحد .. »

ظللت صامتًا أتحسس لحيتى .. أحكها كأنى مصاب بنوع فريد من الجرب ..

بعد قليل قلت له :

ـ « هل تحسنت الأبقار ؟ »

ـ « ابتعت أفضل أنواع الدولومايت الغنى بالمغنسيوم .. أعتقد أنها تتحسن .. »

المدير ليس هنا .. هذا من حسن حظى .. لا أخشى شيئًا فى الحياة إلا نظرته اللائمة .. سوف يتهمنى بالخرق وإفساد الأمور وبأننى لم أظفر بقدر من الذكاء الاجتماعى يكفى لطفل .. هذا هو ما أخشاه فعلاً .. فيما عدا هذا لا أبالى بوحيد القرن هذا ..

قلت فى هدوء :

- « سيدى .. بصرف النظر عن الخطبة العظيمة التى قلتها .. فأنا أومن أنك المسئول عن كل شىء وأنك كنت اليد الشريرة التى حركت كل الخيوط .. أنت المسئول عن مقتل ذلك الصبى وموت أمه .. أنت الذى أرسلت رجالك يقتحمون دارى .. وربما جاءوا لقتلى .. أنت من أرسلت رجالك يخطفون طفلة .. كل هذا من أجل حماية ثروتك البغيضة .. ولو تفشى داء جنون الأبقار فى الكاميرون كلها لما باليت طالما هو بعيد عن مزرعتك .. (جورج) لم يكن سوى كلب مخلص نفذ أوامر سيده .. إن الرجال من أمثالك يصيبوننى بالغثيان .. »

وتجشأت ومددت يدى إلى علبة الكولا المفتوحة أمامه قائلاً :

- « معذرة .. »

وجرعت جرعة لا بأس بها .. ثم :

ـ « بوش ش ش ش ! »

أفرغت كل ما كان فى فمى فى وجهه ..

أصابه الذهول ، أعتقد أنه كان موشكًا على الإصابة بنوبة قلبية فقلت وأنا أعيد العلبة للمنضدة :

ـ « والآن ناد المدير وقل له إننى أفرغت علبة الكولا فى وجهك .. لن يصدق .. ما من أحد سيصدق هذا إلا لو رآه .. ما من أحد يتصور إننى بهذا الجنون .. للأسف أنا كذلك .. »

نظر لى للحظات بعينين يتطاير منهما الشرر .. فلو أن النظرات تقتل .. ثم أخرج منديلاً أنيقًا وراح ينظف وجهه وبذلته .. وقبل أن يرد كنت قد اتبعت تكتيك الانسحاب الشهير ..

غادرت المكتب ..

عند السكرتيرة وجدت (بارتلبيه) يمهر بعض الأوراق بإمضائه ، وسألنى بطريقة عابرة وأنا أنصرف :

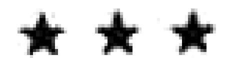
- « هيه ؟ هل تصالحتما ؟ »

- « وتبادلنا أنخاب الصداقة ! »

قلتها وغادرت المكان ..

لن يفتح فمه .. هذا الطراز من البشر سهل أن يهان لأنه يرفض الاعتراف بالإهانة .. لكنه كذلك لا ينسى الإساءة كأنه خرتيت ..

قافلة أعدائى تزداد طولاً .. لقد حان وقت الابتعاد عن هذا البلد ..



لماذا جنت الأبقار ؟

هذا هو السؤال الذى راح يجول فى ذهن (مايك ألبى) الطبيب البيطرى الأسترالى .. تلك المزرعة قرب (داروين) حيث يعمل .. الأبقار تمشى مترنحة وتسقط على قائميها الأماميين .. فلماذا ؟

وهذا المـرض الذى أصـاب عـاملين هنـا .. لمـاذا فقدوا الذاكرة وبدءوا يخرفون كالأطفال ؟

مستحيل أن يكـون هـذا .. المـرض علـى قـدر علمـه لا ينتقل للبشر .. صحيح أن العمال هنا يعيشـون علـى لحم الأبقار المشوى لكن المرض لا ينتقل للبشر .. إن (يـاكوب كروتسفلت) وعته الأبقار مرضان متشـابهان لكنهمـا ليسـا الشىء ذاته ..

إنه مصمم على هذا ولسوف يحاول إثباته ..

كنت راغبًا فى معرفـة ما تـم فـى هذا الموضـوع ، لكنك تتكلم عن (داروين) فى الطرف الآخر من العالم .. للأسف هذا بعيد جدًا عن مجال عملنا فى (سافارى) .

علاء عبد العظيم

أنجـاوانديـرى

تمت بحمد الله

روايات
مصرية
للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حياً ولكى يظل طبيباً

لماذا جُنّت الأبقار؟

كانت تلك المرأة تجلس فى فراشها شاخصة البصر إلى الأمام .. لا أستطيع أن أقدر عمرها لكنها ليست مسنة على كل حال .. شعرها منتثر ثائر وثياب المستشفى التى ترتديها قذرة متسخة ..

فى عينيها تلك النظرة التى تراها مراراً .. نظرة جهاز الكمبيوتر - لو كان شىء كهذا ممكناً - الذى فقد قرصه الصلب .. إنها واعية لكن لا نفع لوعيها هذا ولا تعرف ما يجب أن تصنعه به ..



د. أحمد خالد توفيق

الرواية القادمة

زولو

الثمن فى مصر ٢٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع